

سُورَةُ النَّحْلِ

حِينَ تُصْبِحُ النِّعْمَةُ طَرِيقًا إِلَى الْمُنْعِمِ

رَحْلَةً تَدْبُرِيَّةً فِي آيَاتِ الْخَلْقِ، وَمَعَانِي الشُّكْرِ، وَمَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ



مُحَمَّدٌ رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ النَّحْلِ

حِينَ تُصْبِحُ النِّعْمَةُ طَرِيقًا إِلَى الْمُنْعَمِ

رَحْلَةً تَدْبِيرِيَّةً

فِي آيَاتِ الْخَلْقِ، وَمَعَانِي الشُّكْرِ،
وَمَقَامِ الْعُبُودِيَّةِ

﴿ رَدَّادُ السَّلَامِ ﴾

سُورَةُ النَّحْلِ

مُقَدِّمَةٌ مِّنْهُجَّةٌ

فِي طَرِيقَةِ قِرَاءَةِ سُورَةِ النَّحْلِ وَتَدْبِيرِ هِدَايَاتِهَا

هذا الكتاب رحلة تدبُّرية في سورة النحل، تحاول الاقتراب من هداياتها بلغة تجمع بين أمانة المعنى وجمال التعبير، وبين نور التفسير وحياة التأمل، وبين دلالة الآية في سياقها الأول وامتداد هدايتها في واقع الإنسان المتجدد.

وليس المقصود بهذه القراءة أن تكون تفسيرًا اصطلاحيًا مستوعبًا لجميع مسائل السورة اللغوية والفقهية والعقدية وأقوال المفسرين؛ فذلك ميدان له كتبه وأصوله ورجاله. وإنما هي قراءة تدبُّرية أدبية تنطلق من المعنى الصحيح الذي دل عليه النص وبيّنه أهل التفسير، ثم تنظر في آثاره النفسية والإيمانية والاجتماعية، وتستخرج ما يفتح من نوافذ على حياة الإنسان وقلبه ومسؤوليته في الوجود.

فالتفسير يكشف معنى الآية، والتدبر يتلقى هدايتها؛ والتفسير يحدد المراد، والتدبر يسأل: ماذا يصنع هذا المراد في القلب؟ وكيف يتحول من معرفة محفوظة إلى بصيرة حاكمة، ومن نص يُتلى إلى نور يُرى به العالم؟

ومن هنا قام منهج الكتاب على أصول واضحة:

أولها: الانطلاق من ظاهر الآيات ولسانها العربي وسياقها داخل السورة، دون انتزاع اللفظ من موضعه، أو تحميله معاني بعيدة لا يحتملها نظم القرآن. فالتأمل لا يكون حرًا من دلالة النص، وإنما يكون حرًا في استكشاف امتداداتها الصحيحة؛ إذ لا جمال في خاطر يلمع بعيدًا عن مراد الآية، مهما رقت عبارته.

وثانيها: النظر إلى السورة بوصفها بناءً متكاملًا، لا مجموعة موضوعات متناثرة. فسورة النحل تتحرك حول محور جامع هو: التعريف بالمنعم من خلال نعمه، وبناء الإنسان الشاكر الذي يرد العطية إلى واهبها بالتوحيد والعبادة والعدل والإحسان.

ولهذا لا تأتي مشاهد الأنعام والمطر والزرع والبحر والجبال والنجوم واللبن والعسل والبيوت والثياب متفرقةً بلا رابط؛ بل تنتظم كلها في حجة واحدة تخاطب العقل والوجدان: إن الذي خلق هذه النعم وسخرها هو وحده المستحق للعبادة، وإن الانتفاع بعطائه ثم الإعراض عن أمره لون من الجحود لا يستقيم معه عقل ولا وفاء.

وثالثها: تتبع الصلة العميقة التي تقيمها السورة بين التوحيد والشكر. فالتوحيد اعتراف بمصدر النعمة، والشكر أثر هذا الاعتراف في الحياة. والمشرِك لا يخطئ في تصور الإله فحسب، بل يضع النعمة في غير موضعها، وينسبها إلى غير واهبها، ويصرف خضوعه لمن لا يخلق ولا يرزق. أما المؤمن

فيرى في كل نعمة طريقاً إلى المنعم، وفي كل عطاء مسؤولية أخلاقية.

ورابعها: الانتقال من المشهد الكوني إلى المعنى الإنساني، دون إلغاء المعنى الأصلي أو استبداله. فحين تتحدث السورة عن إنزال الماء وإحياء الأرض، يبقى الماء ماءً والأرض أرضاً، ثم يفتح المشهد - على جهة الاعتبار - على الوحي الذي يحيي القلوب. وحين تذكر اللبن الخالص الخارج من بين الفرث والدم، تبقى الآية دليلاً على قدرة الله في خلق اللبن، ثم يُستضاء بها في رؤية قدرة الله على إخراج الطيب من قلب الظروف المؤلمة.

إن هذا الانتقال ليس تفسيراً جديداً للآية، ولا دعوى أن تلك الصور هي مرادها المباشر؛ وإنما هو تدبر في الهداية التي يوقظها معناها الصحيح. وهذا التمييز ضروري حتى يظل التأمل خادماً للنص لا بديلاً عنه.

وخامسها: وصل الآيات بواقع الإنسان المعاصر؛ لأن القرآن لم ينزل ليظل معزولاً في زمنه الأول، بل ليهدي الإنسان في كل عصر. فقضايا السورة لا تزال حية: جحود النعمة، وعبادة القوة والمصلحة، والغرور بالرزق، والاحتجاج بالقدر، والتحايل على الأحكام، ونقض العهود، وتزيين الباطل، والظلم الاجتماعي، ومسؤولية الكلمة، وأخلاق الدعوة، والعدل عند الخصومة، والصبر أمام المكر.

ولا يعني هذا إسقاط الواقع على القرآن حتى يُجبر النص على تأييد موقف سابق، بل يعني عرض الواقع على ميزان القرآن؛ ليكشف انحرافه، ويعيد ترتيب قيمه، ويمنح الإنسان بصيرة يرى بها ما وراء الأسماء والشعارات.

وسادسها: الجمع بين الجلال والجمال في الخطاب. فالسورة تعرض جمال النعمة، لكنها تذكر بالحساب؛ وتفتح باب الرجاء، لكنها لا تميم حدود المسؤولية؛ وتدعو إلى الرحمة، لكنها تقيم العدل؛ وتأذن بالانتصاف، ثم ترفع الصابرين إلى مقام أسمى.

ولذلك سعى السرد إلى مخاطبة العقل دون أن يجف، والوجدان دون أن ينجرف، وإثارة الدهشة دون أن تنفصل الدهشة عن الحقيقة. فاللغة الأدبية هنا ليست زينة تُضاف إلى المعنى من خارجه، وإنما محاولة لإعادة شيء من حرارة التلقي إلى القلب الذي أضعفه الاعتياد.

وسابعها: مراعاة التنزيه في الحديث عن الله سبحانه، وإثبات ما أثبتته لنفسه على الوجه اللائق بجلاله، من غير تشبيه ولا تكييف ولا تمثيل؛ فهو تعالى: **(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)**. فكل تعبير أدبي في هذا الكتاب ينبغي أن يُفهم في ضوء أصل التنزيه، وألا يحمل على معنى يوهم مشابهة الخالق للمخلوق.

وقد انتظم الكتاب في فصول تنتبغ آيات السورة بحسب ترتيبها، حتى تُقرأ السورة في حركتها الداخلية المتصاعدة: من يقين الأمر

الآتي، إلى وحي الروح، إلى مشاهد الخلق والتسخير، إلى إقامة برهان التوحيد، ثم كشف الجحود والاستكبار، واستعراض سنن العقابة، والانتقال إلى نماذج الشكر والهجرة والصبر، والوقوف عند النحلة بوصفها آيةً جامعة، ثم بناء الأخلاق الاجتماعية على العدل والإحسان والوفاء، حتى تنتهي السورة بمنهج الدعوة والصبر والمعية الإلهية.

وقد جرى تقسيم الآيات إلى وحدات موضوعية، تحمل كل واحدة منها عنواناً يكشف محورها الشعوري والفكري، مع المحافظة على اتصال الفصول بالخيط الجامع للسورة. فليس المقصود من العناوين تفكيك السورة، بل تقريب بنائها، وإظهار التحولات الدقيقة في خطابها.

أما النحلة التي حملت السورة اسمها، فهي في هذه القراءة أكثر من مخلوق عجيب يخرج من بطونه العسل؛ إنها نموذج للكائن حين يستجيب لهداية ربه: يتلقى الإلهام، ويسلك السبيل المذل، ويأخذ من الطيبات، ثم يعيد إلى الحياة شراباً فيه شفاء. ومن هنا ينبثق سؤال الكتاب الأعرق للإنسان: ماذا أخرجت أنت من كل ما أودعه الله فيك؟ وهل تحولت النعم التي تلقيتها إلى شفاء للناس، أم إلى عبء عليهم؟

إن سورة النحل لا تريد من الإنسان أن يحصي النعم فحسب؛ فقد أخبرته أنه عاجز عن إحصائها، وإنما تريد أن تصنع فيه وعي النعمة. ووعي النعمة ليس شعوراً عابراً بالامتنان، بل رؤية

كاملة للوجود: يرى بها الإنسان نفسه عبدًا متلقيًا، وما في يده أمانة، والكون من حوله مائدة رحمة، والحياة فرصةً لتحويل العطايا إلى طاعات.

وبهذا المعنى، لا يكون الشكر كلمةً تقال بعد الطعام وحده؛ بل منهج حياة: شكر العلم أن يُنشر حقًا، وشكر المال أن يُصرف عدلًا، وشكر القوة أن تحمي الضعيف، وشكر اللسان أن يصدق، وشكر البيت أن يكون سكنًا، وشكر الإيمان أن يتحول في الناس رحمةً وإحسانًا.

هذه هي الزاوية التي يقرأ منها الكتاب سورة النحل: سورةً تنتقل الإنسان من النظر إلى النعمة إلى معرفة المنعم، ومن المعرفة إلى المحبة، ومن المحبة إلى الطاعة، ومن الطاعة إلى صناعة الخير في الأرض.

فإن أصاب هذا الكتاب معنى من هدايات السورة، وأيقظ في القلب شكرًا، أو صحح في العقل تصورًا، أو رد نعمةً إلى مصدرها، فذلك من فضل الله وتوفيقه. وإن وقع فيه نقص أو قصور، فذلك من طبيعة الجهد البشري المحدود، وحسبه أنه حاول أن يقف بأدبه وفكره عند باب كلام الله، مستضيئًا بنوره، لا مدعيًا الإحاطة بأسراره.

سُورَةُ النَّحْلِ

والله أسأل أن يجعل هذه القراءة نافذةً إلى كتابه، لا حجاباً دونه؛
وأن يرزقنا قلباً يرى أنعمه، ولساناً يحمده، وعملاً يصدّق الحمد،
حتى نصير من الذين قال فيهم:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

مدخل إلى السورة

السُّورَةُ النَّحْلِ تَفْتَحُ عَيْنَ الْإِنْسَانِ عَلَى مَا اعْتَادَهُ

ليست أعظم النعم دائماً تلك التي نفتقدها، بل قد تكون تلك التي نعيش في داخلها حتى لا نكاد نشعر بها. فالنور لا يدهشنا ما دمنا نبصر، والهواء لا نذكره ما دمنا نتنفس، والأرض لا تلفت انتباهنا ما دامت تحمل خطانا في صمت، والسماء لا نستشعر هيبته لأنها تظل أعمارنا كل يوم.

وهنا يأتي القرآن، لا ليخلق للإنسان عالماً آخر، بل ليعيد إليه العالم الذي فقده من شدة الاعتياد.

يأخذ بيده إلى الأشياء نفسها: إلى الأنعام التي يراها، والماء الذي يشربه، والزرع الذي يأكله، والليل الذي يسكن فيه، والبحر الذي تمخره السفن، والنحل الذي ينتقل بين الأزهار، والبيوت التي يسكنها، والثياب التي تستره؛ ثم يزيح عن هذه الأشياء غبار الألفة، فإذا بها آيات، وإذا بالمألوف معجزة، وإذا بالحياة كلّها رسالة طويلة من الله إلى الإنسان.

إن سورة النحل هي سورة إيقاظ الحاسة التي خمدت في أرواحنا: حاسة رؤية النعمة.

فالإنسان لا يعيش بنعم الله فحسب، بل يعيش داخل نظام كامل من الرحمة؛ غير أنه قد يأكل ولا يشكر، ويركب ولا يتفكر، ويسكن ولا يعتبر، ويستدفئ ولا يذكر، ويتقلب في العافية ثم يسأل: أين فضل الله؟

وكان السورة تقول له: ليس السؤال أين النعمة، بل أين القلب الذي يراها؟

إنها لا تعدّد النعم تعدادًا باردًا، وإنما تبني بها برهان التوحيد، وتردّ الإنسان من العطية إلى المعطي، ومن الأثر إلى المؤثر، ومن الخلق إلى الخالق. فكل نعمة في السورة ليست متاعًا فحسب، بل دليل؛ وليست لذة عابرة، بل حجة أخلاقية؛ لأن اليد التي أغدقت عليك هذا كله جديرة بأن تُعبد، والقلب الذي عرف مصدر النعمة لا يليق به أن ينحني لسواه.

ومن هنا يلتقي في السورة التوحيد بالشكر؛ لأن الشرك في جوهره نسبة النعمة إلى غير واهبها، والشكر في جوهره ردّها بالقلب واللسان والعمل إلى الله. وما بينهما تتحدد حقيقة الإنسان: أياكون وفيًا للمنع، أم يستمتع بعطاياه ثم يجده؟

وقد عُرفت السورة باسم النحل، وكان هذا المخلوق الصغير قد أصبح عنوانًا لمنهج السورة كلها. فالنحلة تتلقى الوحي الذي يلائم خلقتها، وتسلك السبل التي دّلّها الله، وتأكل من الطيبات، ثم تُخرج للناس شرابًا فيه شفاء. إنها صورة للكائن حين يستجيب

لهداية ربه: يأخذ من الكون طيبًا، ويمضي في الأرض منقادًا، ثم يعود على الحياة بالنفع والشفاء.

أما الإنسان، فقد يُعطى العقل والوحي والبيان، ثم يأكل من نعم الله ويُخرج للناس ظلمًا وفسادًا وأذى!

كأن النحلة الصغيرة تضع أمام الإنسان الكبير سؤالًا موجهًا: ماذا أخرجت أنت من كل ما أودعه الله فيك؟

ليس المهم كم أخذت من الحياة، بل ماذا صنعت بما أخذت. وليس الشكر كلمة تقال بعد الطعام وحده، بل أن تتحول النعمة في يدك إلى خير، والمعرفة في عقلك إلى هداية، والقوة في جسدك إلى نصرة، والمال في ملكك إلى رحمة، والكلمة في لسانك إلى صدق.

ولهذا تمضي السورة من النعمة إلى المسؤولية، ومن الخلق إلى التكليف، ومن مشاهد الجمال إلى مشاهد القيامة، ومن لين العطايا إلى صرامة الحساب. فالذي أطعمك سيسألك، والذي أعطاك السمع والبصر والأفئدة لم يمنحك إياها لتكون منافذ للشهوة والغفلة، وإنما لتكون أبوابًا إلى المعرفة والعبودية.

إن سورة النحل تريد أن تُخرج الإنسان من العيش الغافل إلى الحياة الشاكرة؛ من أن يستعمل الأشياء دون أن يفهم معناها، إلى أن يرى في كل شيء خيطًا يصله بالله.

سُورَةُ النَّحْلِ

فقطرة اللبن ليست شراباً فحسب، بل آية خرجت من بين فرث ودم. والعسل ليس حلاوة فحسب، بل سر أودعه الله في بطن حشرة ضعيفة. والبحر ليس امتداداً أزرق، بل رزق وزينة وطريق. والجبال ليست صخوراً صامتة، بل رواسي تحفظ توازن الأرض. والنجوم ليست مصابيح بعيدة، بل علامات يهتدي بها السائرون.

إن الكون في سورة النحل لا يقف صامتاً؛ إنه يتكلم بلغة النعمة، ويشير كله في اتجاه واحد: الله.

الفصل الأول

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾: حِينَ يَسْقُطُ وَهُمْ التَّاجِلِ

تبدأ سورة النحل بداية تهزُّ الزمن في وعي الإنسان:

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

لم تقل الآية: سيأتي أمر الله، بل قالت: **﴿أَتَى﴾**.

وما أعجب هذا التعبير! فالحدث الذي ينتظره الناس في المستقبل يتحدث عنه القرآن بلفظ الماضي، حتى يبدو في يقينه كأنه وقع وانقضى. ذلك أن ما وعد الله به لا تحول بينه وبين الوقوع قوة، ولا يردده احتمال، ولا يعترض طريقه طارئ. المستقبل عند الإنسان أرض مجهولة، أما في علم الله فهو مكشوف لا يستتر منه شيء.

نحن نقول: لعلّ، وربما، وقد يحدث؛ لأننا محكومون بالجهل والعجز. أما وعد الله فلا يقف على باب الاحتمال، بل يدخل الوجود في موعده الذي قدره الله له.

إن قوله: **﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾** ينتزع من النفس وهم التأجيل. فالإنسان يعرف أن الموت آت، لكنه يعيش كأنه استثناء. ويؤمن بأن الحساب حق، لكنه يؤجل التوبة كأن بينه وبين القيامة عهدًا مكتوبًا. يسمع الإنذار، ثم يطمئن إلى امتداد الأيام؛ لأن ما لم يقع أمام عينيه يخيل إليه أنه بعيد.

لكن البعيد في حساب العمر قريب، والآتي الموعود قد بدأ منذ لحظة الميلاد؛ فكل يوم يمضي لا يضيف إلى المسافة بينك وبين النهاية، بل ينتقص منها.

إن الحياة ليست طريقًا نتحرك فيه نحو المستقبل فحسب؛ إنها طريق يتحرك بنا أيضًا نحو المصير. نحن لا نسير إلى الموت وحدنا، بل يسير الموت إلينا من الطرف الآخر، حتى يلتقي المسافران في اللحظة المقدرة.

ولذلك جاء النهي: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

كان المكذبون يستعجلون العذاب استهزاءً وتحديًا، كأن تأخره عجز، وكأن إهمال الله إهمال. ولم يدركوا أن الجلم ليس غفلة، وأن التأخير ليس تراجعًا عن الوعيد، وأن الله حين يمهل العبد يفتح له بابًا إلى التوبة، لا منفذًا إلى الهرب.

كم يسيء الإنسان فهم المهلة!

يرتكب الظلم فلا يعاقب عاجلاً، فيظن أن ميزان السماء لا يعمل. ويبغي فلا تنزل به قارعة، فيتوهم أن القوة التي يحتمي بها أعظم من العدالة. ويكذب ويخون ويفسد، ثم يرى الشمس تشرق عليه في اليوم التالي، فيغتر ببقاء العالم من حوله، ولا يدري أن الإهمال قد يكون آخر حبل تمده الرحمة إليه قبل أن يحين الحساب.

إن أخطر ما يصيب الظالم ليس أن يؤخذ سريعاً، بل أن يُمهّل حتى يفسر الإمهال رضا، ويفسر الستر عجزاً، ويفسر توالي النعم استحقاقاً. هناك يصبح النعيم نفسه حجاباً، وتتحوّل العافية إلى فتنه، ويكون الاتساع في الظاهر تضيقاً خفياً على القلب.

ثم تنزه الآية الله عن شركهم: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فالشرك ليس خطأ فكرياً صغيراً، وإنما هو انقلاب في رؤية الوجود: أن ترى أثر النعمة ثم تنسبها إلى غير واهبها، وأن ترى سلطان الله ثم تمنح بعض خصائصه لمخلوق عاجز، وأن تعيش في ملكه وتتنفّس من هوائه وتأكل من رزقه، ثم تجعل ولاء قلبك وعبادتك وخضوعك لسواه.

إن كلمة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تطهّر التصور من أوهام البشر. فالله لا يشبه مخلوقاته، ولا يلحقه نقص، ولا يعجزه شيء، ولا يحتاج إلى شريك أو نصير. كل ما عداه قائم به، مفتقر إليه، محكوم بأمره؛ فكيف يساوى به من لا يملك لنفسه خلقاً ولا رزقاً ولا موتاً ولا حياة؟

بعد هذا المطلع المزلزل، تنتقل السورة إلى أعظم النعم وأصلها:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

سمّى الوحي روحًا؛ لأن الأجساد تحيا بالماء والطعام، أما الإنسان من حيث هو إنسان فلا يحيا إلا بالوحي. قد يمشي الجسد، وينبض القلب، وتعمل الحواس، لكن الروح من الداخل تكون يابسة، مظلمة، فاقدة للوجهة. ليست الحياة أن تتحرك الأعضاء فقط؛ فقد يتحرك الإنسان في الأسواق والمكاتب والطرقات، وهو في ميزان المعنى ميت لا يعرف لماذا جاء، ولا إلى أين يمضي.

الوحي هو الروح التي ترد الأشياء إلى مواضعها. يخبر الإنسان مَنْ رَبُّهُ، وَمَنْ هو، ولماذا خُلِقَ، وما الخير، وما الشر، وما الذي يبقى بعد أن تسقط أوراق العمر كلها.

وبغير الوحي قد يتقدم الإنسان في صناعة الوسائل، وهو يجهل الغاية. يقطع المسافات في ثوانٍ، لكنه لا يعرف إلى أين ينبغي أن يتجه. يرفع الأبنية، ويهدم الإنسان. يضاعف المعرفة، ولا يملك الحكمة التي تضبطها. يصنع أدوات القوة، ثم تسكنها نفس لم تتعلم الرحمة.

ما قيمة أن يمتلك الإنسان جناحين إذا كان لا يعرف القبلة؟

إن الحضارة التي تتضخم أدواتها وتضمّر روحها قد تصبح أكثر قدرة على إيذاء الإنسان، لا أكثر قدرة على إيساعده. فالعقل يجيب عن سؤال: كيف؟ لكن الوحي يجيب عن السؤال الأعرق: لماذا؟ ولأي غاية؟ وتحت أي ميزان؟

ولهذا لم تكن أول رسالة يحملها الروح تفاصيل الحياة المتفرعة، بل أصل الأصول:

﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾.

إن التوحيد ليس باباً من أبواب الدين فحسب، بل هو المركز الذي تنتظم حوله سائر الأبواب. فإذا عرف الإنسان أن الله وحده الإله، تحرر من عبادة كل ما سواه: من عبادة السلطة، والمال، والجماعة، والهوى، ونظرة الناس، والخوف من المخلوق.

ومعنى أن تقول: لا إله إلا الله، أن تردّ قلبك كله إلى مركز واحد؛ فلا تتوزعه الآلهة الصغيرة التي تتخفى في هيئة رغبة أو رهبة أو مصلحة. إنها كلمة تجمع شتات الروح بعد أن بعثرتها المطامع والمخاوف.

من عرف أن الله وحده يرزق، لم يبيع ضميره لطالب نفع. ومن عرف أن الله وحده يملك الضر، لم يركع لتهديد ظالم. ومن عرف أن الأمر كله لله، لم يجعل رضا الناس قبلة حياته.

ثم قال: ﴿فَاتَّقُونِ﴾.

فالمعرفة التي لا تغيّر السلوك ليست توحيداً مكتمل الأثر. لم تقل الآية: فاعلموا فقط، بل نقلت العلم إلى التقوى. لأن التوحيد الحق لا يسكن الذهن بوصفه معلومة، وإنما ينزل إلى القلب خشية، وإلى الضمير مراقبة، وإلى الجوارح استقامة.

أن تعرف أن الله يراك، ثم تصر على الخيانة، معناه أن المعلومة لم تصبح يقيناً. وأن تقر بأنه الرزاق، ثم ترتكب الحرام خوفاً من الفقر، معناه أن الكلمة لم تبلغ أعماقك بعد.

التقوى هي الأثر العملي لرؤية الله بقلبك في كل شأن؛ أن تجعل بينك وبين سخطه حاجزاً من الطاعة، لا لأن أعين الناس عليك، بل لأن عين الله لا تغيب.

الفصل الثاني

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِالْحَقِّ: الْكَوْنُ الَّذِي لَمْ يُبْنَ عَبَثًا

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ.﴾

بعد أن عرّفت السورة الإنسان بأمر الله ووحيه، فتحت أمامه كتاب الكون. فالذي أنزل الروح هو الذي خلق السماوات والأرض، وليس بين الوحي والكون تناقض؛ لأن مصدرهما واحد. هذا كلامه المقروء، وذاك صنعه المنظور.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي إن الوجود لم يُبن على اللهو والعبث، ولم تُشعل هذه النجوم الهائلة لتكون زينة عابرة في مسرح بلا غاية. كل شيء قائم بالحق، متلبس بالحكمة، متجه إلى مواعده.

وحين يوقن الإنسان أن الكون خُلق بالحق، يدرك أن حياته هي الأخرى ليست حادثاً بلا معنى. ليست الأيام حفنة من المصادفات، ولا الإنسان كائنًا ظهر لحظة ثم يذوب في التراب بلا سؤال. إن الخلق بالحق يقتضي غاية، والغاية تقتضي تكليفًا، والتكليف يقتضي حسابًا.

العبث لا يصنع هذا الاتساق، والمصادفة لا تكتب هذه الحكمة، والعدم لا يمنح الوجود قوانينه.

غير أن الآية تهبط فجأة من السماوات والأرض إلى قطرة صغيرة: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾.

يا لها من مسافة بين الأصل والموقف!

نطفة ضعيفة لا تكاد تُرى، ثم إذا بها بعد حين إنسان قائم يجادل ربّه، وينكر خالقه، ويخاصم في البعث، ويتحدث بلغة المستغني: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

إن كلمة ﴿فَإِذَا﴾ تختصر المفارقة المذهلة: من نطفة إلى خصومة! من العجز المطلق إلى غرور يتناول على مصدر وجوده!

وهنا تكشف السورة واحدًا من أعمق أمراض الإنسان: أنه يتذكر صورته الحاضرة وينسى بدايته. ينظر إلى عقله وقوته وماله ومكانته، ولا يعود بذاكرته إلى تلك القطرة التي لم تكن تملك لنفسها شيئًا. ولو ظل أصله حاضرًا في وعيه لانكسر فيه الكبر، ولصار كل ما ناله سببًا في التواضع لا في الطغيان.

فالإنسان لم يخلق نفسه، ولم يختار ملامحه، ولم يصنع قلبه، ولم يعلم خلاياه كيف تنقسم، ولم يأمر أعضائه أن تتكون. لقد جرى عليه الخلق وهو غائب عن نفسه؛ ثم لما اكتمل بناؤه، استعمل الأدوات التي وهبها الله له في مجادلة واهبها!

كم يبدو الجحود قبيحًا حين يُرى من جهة النعمة.

لقد وهبه الله لساناً، فجادل به في الله. ووهبه عقلاً، فاتخذ من العقل وسيلة إلى إنكار واهب العقل. ووهبه حرية الاختيار، فاختار أن يتمرد على من منحه الاختيار. وهذه هي مأساة الإنسان حين تنفصل الموهبة عن الشكر: تنقلب النعمة سلاحاً في وجه المنعم.

لكن السورة لا تتركه عند أصل خلقه، بل تبدأ بعرض موكب النعم؛ لعل كثرتها تلين قلبه، ولعل الجمال الذي يغمر حياته يرده إلى ربه:

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

لم تقل الآيات: فيها طعام ومنافع فحسب، بل أضافت: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾.

فالله لا يلبي في الإنسان ضرورة البقاء وحدها، بل يخاطب فيه حس الجمال أيضاً. لم يجعل الحياة آلة خشنة توفر الضروري فقط، وإنما بث فيها ما يبهج العين ويشرح النفس. مشهد الأنعام حين تعود في المساء ممتلئة البطون، وحين تنطلق في الصباح إلى مراعيها، ليس منفعة مادية فحسب؛ إنه منظر جميل أودعه الله في يوم الإنسان.

وهذه لفظة قرآنية رفيعة: الجمال نعمة.

إنه ليس ترفاً زائداً على الحياة، بل غذاء خفي للروح. فالزهرة لا تشبع جائعاً، لكنها تذكره أن العالم لم يُخلق خشناً. وصوت الطائر لا يبني بيتاً، لكنه يفتح في جدار الروح نافذة. وألوان الغروب لا تزيد الرصيد، لكنها تعيد للإنسان جزءاً من إنسانيته التي تستهلكها الأسواق والصراعات.

الله الذي أعطاك ما يقيم جسدك أعطاك كذلك ما يبهج قلبك. وفي هذا تعليم للإنسان ألا يجعل حياته قائمة على المنفعة وحدها؛ فحين تتحول الأشياء كلها إلى أثمان وأرقام، يفقد العالم معناه ولو ازدادت ثروته.

ثم يقول سبحانه:

﴿وَتَحْمِلْ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِآلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأُنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

تتجلى الرأفة هنا في حمل الأثقال.

وكان من رحمة الله بالإنسان ألا يحمله كل شيء بنفسه. سخر له من خلقه ما يخفف عنه مشقة الطريق، ويحمل أوزاره المادية إلى البلاد البعيدة. والآية، وإن كانت تتحدث عن أثقال السفر، تفتح في النفس معنى أوسع: إن من رحمة الله أن يهيئ للإنسان من يحمل معه بعض أثقال الحياة.

فالصديق الصادق مركب من الرحمة، والكلمة المواسية تحمل شيئاً من ثقل الحزن، واليد التي تعين الضعيف آية بشرية من آيات التسخير. وليس كل الحمل حمل أمتعة؛ قد يحمل إنسان عنك ألماً حين ينصت إليك، وقد يختصر عليك طريقاً حين يرشدك، وقد يرد عن روحك الانهيار حين يقف إلى جانبك.

وإذا كان الله قد وصف نفسه بالرفقة والرحمة في سياق تخفيف الأثقال، فكل من يثقل على الناس ظلماً ويزيد معاناتهم قسوةً يسير عكس المعنى الذي يحبه الله لعباده.

ثم قال تعالى:

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

مرة أخرى يجتمع الانتفاع بالجمال: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾. ثم تنفتح العبارة على آفاق لا يحيط بها زمن التنزيل: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إنها جملة تربي العقل على التواضع أمام مستقبل الخلق. فما يعرفه الإنسان ليس نهاية الممكن، وما رآه في عصره ليس حدود القدرة. تتغير وسائل الركوب، وتتسع أدوات النقل، ويكشف الزمن عن مخلوقات وصنائع وأسباب لم تخطر للأولين، وتظل العبارة القرآنية أوسع من كل صورة.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فلا تجعل حدود علمك حدوداً لقدرة الله، ولا تجعل مجهولك مستحيلاً. إن الإنسان كلما اكتشف شيئاً اتسعت أمامه دائرة ما يجهله. والعلم الحقيقي لا يصنع الغرور، بل يكشف للعارف مقدار جهله.

فما نعرفه جزيرة صغيرة، وما لا نعرفه محيط لا ترى له العين ساحلاً.

ومن هنا تهيئنا السورة للانتقال من طرق الأرض إلى الطريق الأعظم؛ فليست المشكلة أن يمتلك الإنسان مركباً سريعاً، بل أن يعرف إلى أين يسير. وقد يبلغ المرء أقصى البلاد وهو لم يخطُ خطوة واحدة نحو غاية وجوده.

ولهذا يأتي قوله تعالى:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

هناك طرق كثيرة، لكن الطريق القاصد المستقيم واحد. وقد تكون المسافة قصيرة والطريق جائراً، وقد يبذل الإنسان عمره كله في السير ثم يكتشف أنه كان يبتعد عن وجهته مع كل خطوة.

ليست كل حركة تقدماً، ولا كل سرعة نجاة، ولا كل طريق مفتوح جديراً بأن يُسلك.

إن أعظم نعم الله على الإنسان ليست أن يمنحه وسيلة الحركة، بل أن يدلّه على وجهتها. فالراحلة تحمل الجسد إلى بلد، أما الوحي فيحمل الروح إلى الله.

وهكذا يبدأ موكب النعم في السورة، لا ليملأ العين بالمشاهد وحدها، بل ليضع القلب أمام الحقيقة الكبرى: أن الذي خلق، وهدى، وسخر، وجمل، وحمل الأثقال، وفتح الطرق؛ هو وحده المستحق أن يكون غاية الطريق.

الفصل الثالث

مَاءٌ مِنَ السَّمَاءِ: حِينَ تَهْبِطُ الرَّحْمَةُ فَتَسْتَيْقِظُ الْأَرْضُ

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

بعد أن ذكرت السورة الرواحل التي تحمل الإنسان في طرق الأرض، رفعته إلى السماء؛ إلى ذلك الباب الذي تنزل منه الحياة قطرةً قطرة.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾.

ما أيسر الماء في أعين الذين يجدونه، وما أعظمه في ميزان الحياة! يمد الإنسان يده إلى الإناء فيشرب، وكأنه يفعل أمرًا عاديًا؛ غير أن هذه الجرعة الهادئة وراءها نظام كوني هائل: شمس تبخر، ورياح تسوق، وسحب تحمل، وسماء تمطر، وأرض تحفظ، ونباتات تجري. تتعاون عناصر الكون كلها لكي تصل قطرة ماء إلى فم إنسان لا يعرف شيئًا عن الرحلة الطويلة التي قطعها إليه.

والنعمة كثيرًا ما تصلنا بعد أن تُطوى عنا مراحل إعدادها؛ فنظنها سهلة لأنها حضرت بين أيدينا في لحظة، ولا نرى التدبير الممتد خلف وصولها.

كم من يد عملت ليصل إليك رغيف! وكم من سبب اجتمع لتجد دواء! وكم من لطف خفي انتظم حتى تستيقظ في صباحك سالمًا!

إننا نرى النتيجة ونغفل عن شبكة الرحمة التي صنعناها. ولو كُشف لنا مقدار ما يدبره الله في كل لحظة لبقينا العمر كله في سجدة لا نرفع منها رؤوسنا.

قال تعالى: ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.

الماء الذي يروي الإنسان هو نفسه الذي يكسو الأرض بالنبات، ويهيئ للأنعام مراعيها. نعمة واحدة تتفرع منها نعم لا تُحصى؛ قطرة تنزل في موضع واحد، ثم تتوزع آثارها على الإنسان والحيوان والشجر والتراب.

هكذا عطاء الله: لا يقف عند حدود الصورة الأولى.

قد يرزقك كلمة علم، فنثمر في عقلك فهمًا، وفي سلوكك استقامة، وفي غيرك هداية، ثم تمضي آثارها بعد موتك. وقد يمنحك مالًا، فيتحول في يدك إلى شبع جائع، وعلاج مريض، وتعليم طفل، وستر بيت. النعمة التي تُحسن استقبالها لا تبقى مفردة؛ إنها تتكاثر.

ثم يعرض القرآن هذه الحديقة الواسعة: الزرع، والزيتون، والنخيل، والأعناب، ومن كل الثمرات. ماء واحد ينزل من السماء، وأرض واحدة تحتضنه، ثم تخرج الثمار مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح.

من أين جاء هذا الاختلاف المدهش؟

كيف تصعد القطرة نفسها في جذع الزيتون فتخرج زيتاً، وتصعد في النخلة فتخرج تمرًا، وتسري في الكرمة فتخرج عنبًا؟ من علم كل شجرة سرّ الثمرة التي تحملها؟ ومن أودع في الجذور تلك المعرفة الصامتة التي تميز بها غذاءها وتصنع به ثمرتها؟

إن النبات لا يملك عقلاً يخطط، ولا مختبراً يخلط، ولا عيناً تختار اللون؛ ومع ذلك يصنع ما يعجز الإنسان عن خلق أصغر بذوره.

في كل ثمرة توقيع يدل على صانعها، لكن العين المعتادة تمرّ عليها كما تمر على شيء مكرر. ولذلك لم تقل الآية: إن في ذلك لآية لكل أحد، بل قالت: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

فوجود الآية لا يعني أن كل أحد يراها. الآيات تحيط بالناس، لكن التفكير هو العين التي تكشفها. وكم من إنسان يعيش في بحر من الدلالات، ثم يموت ولم يقرأ منها حرفاً!

سُورَةُ النَّحْلِ

التفكر ليس أن تنظر إلى الأشياء طويلاً فحسب، بل أن تعبر منها إلى معناها. أن ترى الثمرة فتتذكر رزق الله، وترى تنوعها فتدرك سعة القدرة، وترى عجزك عن خلقها فيسقط شيء من غرورك.

إن المؤمن لا يأكل الثمرة مرتين؛ يأكلها بفمه غذاءً لجسده، ويأكل معناها بقلبه غذاءً لإيمانه.

الفصل الرابع

اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالنُّجُومُ: كَوْنٌ مُسَخَّرٌ وَإِنْسَانٌ مَسْئُولٌ

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

تتسع عدسة السورة، فبعد قطرة الماء والثمرة والشجرة، ترفع الإنسان إلى المشهد الكوني الكبير: الليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم.

كل هذه الأجرام العظيمة تدور في نظام يخدم حياة مخلوق صغير على هذه الأرض. الشمس تمدّه بالدفع والنور، والقمر ينظم له حساب الزمن، والليل يمنحه السكون، والنهار يفتح له ميدان السعي، والنجوم تزين السماء ويهتدي بها السائرون.

إن كلمة ﴿سَخَّرَ﴾ تردُّ الإنسان إلى معنى العطاء؛ فهذه الأشياء لم يصنعها بنفسه، ولم يُبرم معها اتفاقاً، ولم يأمر الشمس أن تشرق، ولا الليل أن يجيء. وُلد فوجد الكون مهياً لاستقباله: الهواء موافقاً لرئتيه، والماء موافقاً لحياته، والأرض ممهدة لخطواته، والضوء مهياً لعينيّه.

جاء الإنسان متأخراً، فوجد المائدة الكونية قد أُعدت قبله.

وهنا ينبغي أن يشعر بالامتنان، لا بالاستعلاء؛ فهو سيدٌ من جهة ما سَخَّرَ الله له، وعبدٌ من جهة أنه لم يخلق شيئاً مما سَخَّرَ. فإذا نسي عبوديته أفسد ما استُخلف فيه، وتوهم أن التسخير تفويض مطلق بالعبث والاستنزاف.

وليس معنى أن تكون الأشياء تحت يدك أن تكون بلا حرمة. الأرض أمانة، والماء أمانة، والحيوان أمانة، والقوة أمانة. وكل ما سخره الله لك سيسألك كيف استعملته.

إن الإنسان المعاصر يفاخر بأنه سيطر على كثير من قوى الطبيعة، لكنه لم يسيطر بالقدر نفسه على طمعه. وحين تتقدم القدرة وتتأخر الأخلاق، يتحول التسخير إلى تدمير.

ثم تأمل قوله: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾.

على اتساعها وهولها، لا تخرج نجمة عن أمره. أجرام تفوق الأرض حجماً بما لا يكاد يستوعبه العقل، ومع ذلك هي في ملك الله كذرة منقادة. فما أضعف ذلك الإنسان الذي يعيش على نقطة صغيرة من هذا الكون ثم يتعالى على أمر ربه!

النجوم خاضعة، والشمس خاضعة، والقمر خاضع، والليل والنهار يجريان في الطاعة، وحده الإنسان يُمنح حرية الاختيار؛ ليظهر أيسجد باختياره كما يسجد الكون بتسخيره، أم يجعل الحرية باباً إلى التمرد؟

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فالعقل في القرآن ليس آلة لتكديس المعلومات وحدها؛ العقل قوة تقود إلى الاعتبار. قد يعرف الإنسان أبعاد النجوم وتركيب الشمس، ثم لا يسأل نفسه عن الخالق؛ فيكون قد أحاط بظاهر الشيء وغاب عنه معناه الأكبر.

العقل الذي لا يصل بين النظام والحكمة، وبين النعمة والمنعم، عقل عطل أجمل وظائفه. فالعلوم تكشف كيف تعمل الظواهر، أما الإيمان فيردُّها إلى باريها، ولا تعارض بين السؤالين؛ لأن معرفة الكيفية لا تلغي معرفة المبدع، بل توسع ميدان الدهشة به.

ثم تهبط بنا السورة من السماء مرة أخرى إلى الأرض:

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

الاختلاف ذاته آية.

لم يخلق الله عالمًا بلون واحد، ولا هيئة واحدة، ولا طعم واحد. ببَّ التنوع في النبات والحيوان والجبال والثمار والوجوه والألسنة. وكأن الجمال يولد من اجتماع الوحدة بالتنوع: مصدر الخلق واحد، لكن تجلياته لا تكاد تُحصى.

إن النفس الضيقة تضيق بالاختلاف، أما البصيرة فترى فيه سعة القدرة. ولو شاء الله لجعل الأزهار كلها على صورة واحدة، والثمار بطعم واحد، والوجوه بنسخة واحدة؛ لكنه أراد للعالم أن يكون معرضاً تتعدد فيه آثار الصنعة الإلهية.

والتذكر هنا ليس استحضار معلومة ضائعة، بل عودة القلب إلى الحقيقة التي تعرفها الفطرة ثم تغطيها الغفلة. فالكون لا يزرع في النفس معرفة غريبة عنها فحسب، بل يوقظ معرفة قديمة مودعة فيها: أن لهذا الجمال خالقاً، ولهذا التدبير مدبراً.

الفصل الخامس

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ: النِّعَمَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِ الْمَخَافِ

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

البحر في عين الخائف اتساع مرعب، وفي عين المتأمل خزان رحمة.

ماؤه مالح، لكنه يحمل للإنسان لحمًا طريًّا. أعماقه مظلمة، لكنها تخبئ الحلية واللؤلؤ. أمواجه مخيفة، لكنها تحمل السفن إلى أبواب الرزق. هكذا يعلمنا الله ألا نحكم على الأشياء من ظاهرها وحده؛ فقد يضع الرزق في قلب ما تخاف، ويخبئ الجمال وراء ستار من المشقة، ويفتح الطريق من الموضع الذي ظننته نهاية الطريق.

كم من محنة حملت في جوفها منحة! وكم من بحر خشي الإنسان دخوله، فإذا بسفينته تعود منه محملة بما لم يكن سيجده على الشاطئ!

لكن الثمرة لا ينالها من يكتفي بالنظر إلى الموج؛ فلا بد من ركوب، ولا بد من عمل، ولا بد من مخاطرة محسوبة. لقد سَخَّرَ الله البحر، لكنه أمر الإنسان أن يبتغي من فضله. فالتسخير لا

يلغي السعي، والتوكل لا يعطل الأسباب، والرزق المكتوب لا يعني أن يبقى المرء على الساحل منتظرًا أن تقذف الأمواج إلى حجره كنوزها.

﴿وَنَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾.

ما أجمل هذا المشهد: السفن تشق الماء شقًا، والبحر الذي لا تثبت عليه قدم يحمل أثقالًا هائلة. شيء بطبيعته سائل يصبح بأمر الله طريقًا، وكتلة ضخمة من الخشب أو الحديد تطفو عليه وتسير.

إن ما لا يصلح أن يكون طريقًا في حساب العين قد يصير طريقًا بتقدير الله. والموانع نفسها قد تتحول إلى وسائل. وما عليك إلا أن تتعلم كيف تبني السفينة التي تناسب بحرك.

وفي كل عصر بحار لا تُرى بالماء: بحر المعرفة، وبحر التجربة، وبحر الدعوة، وبحر مواجهة الباطل. من خاف الموج بقي محدودًا بساحله، ومن ركب مستعينًا بالله بلغ آفاقًا جديدة.

غير أن غاية الرحلة لا تنتهي عند الطعام والحلية والتجارة، بل عند قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

هذه هي الوجهة التي تتجه إليها نعم السورة كلها: الشكر.

والشكر أوسع من كلمة تقال باللسان. الشكر وعيٌّ بالقلب، وثناءٌ باللسان، واستعمالٌ للنعمة فيما يحب المنعم. العين الشاكرة لا تنلصص على المحرمات، واليد الشاكرة لا تبطش بالضعفاء،

سُورَةُ النَّحْلِ

والعقل الشاكر لا يتحول إلى أداة للخداع، والسلطة الشاكرة لا تستعبد الناس.

من استعمل نعمة الله في معصيته لم يشكرها ولو كرر الحمد ألف مرة.

الفصل السادس

رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا: الْأَرْضُ الَّتِي تَحْفَظُ خَطَايَا

﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

تلقت السورة النظر إلى نعمة لا نشعر بها لأننا نعيش في داخلها: ثبات الأرض.

يمشي الإنسان مطمئنًا، يبني بيته، ويزرع حقله، ويرتب أحلامه للغد، ولا يفكر أن استقرار الأرض تحت قدميه نعمة متجددة. نحن غالبًا لا ننتبه إلى الثبات إلا حين يهتز، ولا نعرف قيمة الأمن إلا حين يتصدع، ولا نشعر بنعمة النظام إلا حين يختل.

الجال رواسي، والأنهار شرابين، والسبل خطوط تصل أجزاء الأرض بعضها ببعض. إن المشهد ليس ركامًا عشوائيًا من التضاريس، بل بيت واسع مهيا لحياة الإنسان.

وفي قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ينتقل المعنى من هداية الطريق الحسي إلى الإشارة التي توقظ معنى الهداية كله. فإذا كان الله لم يترك الإنسان تائهاً في شعاب الأرض، بل جعل له سبلاً وعلامات ونجومًا؛ أفيتركه تائهاً في شعاب الوجود بلا وحي يرشده؟

الذي وضع العلامة على طريق الصحراء أنزل الآية على طريق الروح.

والذي جعل النجم دليلاً للمسافر في ظلمة الليل، جعل الوحي دليلاً للإنسان في ظلمات الهوى والشك والفتنة. غير أن الناس قد يهتمون بألا يضلوا طريق مدينة، ولا يبالون أن يضلوا طريق المصير.

كم يحزن المرء إذا أخطأ منعطاً في سفر، وكم تمر به أعوام وهو يسلك في حياته طريقاً خاطئاً دون أن يتوقف ليسأل: إلى أين؟

الهداية ليست أن تعرف موضعك على الخريطة وحدها، بل أن تعرف موضعك من الله.

الفصل السَّابِع

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ: حِينَ يَسْقُطُ الشِّرْكُ أَمَامَ سُؤَالٍ وَاحِدٍ

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ.

بعد هذا الموكب الهائل من الخلق والتسخير، يأتي السؤال الذي يهدم الشرك من جذره:

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ؟﴾

سؤال قصير، لكنه يحمل قوة الحقيقة كلها. كيف يساوى الخالق بال مخلوق؟ كيف يوضع من أوجد السماوات والأرض إلى جوار من لم يخلق ذرة، بل هو نفسه مخلوق؟ وكيف يتجه الدعاء والخوف والرجاء والذبح والنذر إلى عاجز لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً؟

إن الانحراف يبدأ حين تختل الموازين في القلب، فيُمنح المخلوق من التعظيم ما لا يليق إلا بالخالق. وقد تتغير أسماء الأصنام وصورها، لكن جوهر الشرك يظل واحداً: أن يتعلق القلب بغير الله تعلق العبادة، أو يخاف من إنسان كأن مصيره كله بيده، أو يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله.

قد يكون الصنم حجرًا، وقد يكون شخصًا، وقد يكون سلطنة، وقد يكون فكرة، وقد يكون هوى النفس. وكل ما أخذ من قلبك مقامًا لا يليق إلا بالله فقد نازع التوحيد في مساحته المقدسة.

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾.

لم يقل: وإن تعدوا نِعَمَ الله، بل جاء اللفظ مفردًا: ﴿نِعْمَةُ اللَّهِ﴾؛ وكأن النعمة الواحدة إذا فتحت تفاصيلها عجز الإنسان عن إحصائها.

خذ نعمة البصر وحدها: العين، والعصب، والدماغ، والضوء، والألوان، والمسافة، والحفظ، والقدرة على تمييز وجه حبيب من بين آلاف الوجوه. كم نعمة تختبئ داخل نعمة واحدة؟

وخذ لقمة الخبز: بذرة، وأرض، ومطر، وشمس، وفلاح، وحصاد، وطحن، وعجن، ونار، وصحة تقدر بها على المضغ والهضم. إنك لا تأكل لقمة واحدة، بل تأكل تاريخًا طويلًا من النعم المتعاونة.

وخذ لحظة النوم: أمن، وسرير، وسقف، وجسد يسكن، وقلب يواصل النبض دون أمرك، ورئتان تعملان وأنت غائب عن الوعي. من يحرس هذه المملكة كلها حين تنام؟

إنك لا تعجز عن شكر النعم فقط، بل تعجز أولًا عن معرفتها وإحصائها.

وهنا كان المتوقع بعد ذكر العجز أن يقال: إن الله لشديد العقاب على تقصيركم، لكن الآية خُتِمت بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

لأن الله يعلم أن العبد مهما شكر فلن يفي، ومهما حمد فلن يبلغ حقيقة النعمة. فغفر له عجزه، ورحمه بأن رضي منه الاعتراف والتوجه والمحبة والعمل بحسب استطاعته.

إننا نعيش بين نعمة تسبقنا، ومغفرة تستر تقصيرنا، ورحمة تتدارك عجزنا. فما أكرم الله! يعطي، ثم يوفق للشكر، ثم يثيب على الشكر الذي وفق إليه، ثم يغفر ما نقص منه.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۚ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَتَىٰ أَنْ يُبْعَثُونَ ۚ﴾.

الله لا يعلم المظهر وحده، بل السر الذي وراءه. يعلم العبادة حين تصدق، ويعلمها حين تتحول إلى عرض أمام الناس. يعلم كلمة الحق التي خرجت ابتغاء وجهه، ويعلم الكلمة نفسها حين خرجت طلباً للمدح.

يمكنك أن تخدع الناس بصورة الصلاح، لكنك لا تستطيع أن تخدع من يعلم ما تسر وما تعلن.

وفي مقابل علم الله وحياته وقدرته، تعرض الآيات عجز
المعبودات الباطلة: لا تخلق، بل تُخلق؛ أموات غير أحياء، لا
تشعر حتى بموعد بعث عابديها. إنها عاجزة عن إدراك
مصيرها، فكيف تملك مصائر من تعلقوا بها؟

وهكذا تكشف السورة أن الشرك ليس ظلمًا لحق الله وحده، بل
إهانة لعقل الإنسان أيضًا؛ إذ يهبط بنفسه من عبادة الخالق الحي
العليم إلى التعلق بمخلوق عاجز، لا يملك له جوابًا ولا يسمع له
دعاءً.

الفصل الثَّامِن

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ: الْكِبَرُ الَّذِي يُغْلِقُ أَبْوَابَ الْقَلْبِ

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ○ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

الحقيقة واضحة: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾. لكن وضوح الدليل لا يضمن استجابة القلب؛ لأن المشكلة قد لا تكون في نقص البرهان، بل في مرض المستكبر.

﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.

الإنكار هنا عمل القلب، والاستكبار موقف النفس. فالإنسان قد يرى الحقيقة ثم يرفضها، لا لأنها خفية، بل لأنها تطالبه بأن ينزل عن عرش هواه.

إن التوحيد يساوي بين الناس أمام الله، والمتكبر يريد لنفسه منزلة فوقهم. والتوحيد يطالبه بالخضوع، وهو يريد أن يخضع الآخرون له. والتوحيد يسلبه حق التشريع المطلق لنفسه، ويضعه تحت ميزان الوحي؛ ولذلك كانت المعركة في أحيان كثيرة أخلاقية نفسية قبل أن تكون ذهنية.

المتكبر لا يبحث دائماً عن الحقيقة؛ إنه يبحث عما يحفظ صورته ومصالحته ومكانته. فإذا جاءت الحقيقة من فم شخص يستصغره ردها، وإذا هدمت امتيازاً يتمتع به حاربها، وإذا طالبتة بالاعتذار عدَّ الاعتراف هزيمة.

وقد يصبح الإنسان أسيراً لخطئه لا لأنه مقتنع به، بل لأن الرجوع عنه يجرح كبريائه. فيمضي يدافع عن الباطل دفاعاً عن صورته، حتى تتحول الصورة التي أراد حمايتها إلى سجن يمنعه من النجاة.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

وما أشد الخسارة أن يجمع المرء إعجاب الناس ويخسر محبة الله! أن يعلو في المجالس ويسقط في الميزان، وأن تُرفع له الألقاب بينما يُكتب عند الله في زمرة المستكبرين.

التواضع ليس أن تنكر ما أعطاك الله، بل أن تعرف أن ما عندك منه، وأن ترى الحق أكبر من نفسك. أما الكبر فهو أن تجعل ذاتك حاجزاً بينك وبين الهدى.

الفصل التاسع

أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ: حِينَ يُقَابَلُ الْوَحْيُ بِالسَّخَرِيَّةِ

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالَوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾.

كان السؤال: ﴿مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ﴾؟

لكنه لم يكن سؤالاً عن كلمات مجردة، بل عن مصدر سماوي: ماذا أنزل ربكم؟ وكان ينبغي أن يفتح ذكر الرب في القلب باب الهيبة والتلقي؛ غير أنهم فروا من مواجهة الوحي بتهمة جاهزة: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

هكذا يفعل العاجز عن مناقشة الحقيقة: لا يرد على مضمونها، بل يلصق بها وصفاً يريح نفسه من عناء النظر.

إن الكلمة الساخرة قد تكون ستاراً يخفي خوف صاحبها من أن يكون الحق حقاً؛ فهو يضحك لئلا يفكر، ويستتهزئ لئلا يخضع. غير أن السخرية لا تغير طبيعة الحقيقة؛ يمكنك أن تسخر من النار، لكن يدك تحترق إذا مسستها، ويمكنك أن تنكر الحساب، لكن إنكارك لا يلغيه.

ثم تكشف الآية مسؤولية الكلمة الضالة. فالمضل لا يحمل وزره وحده، بل يحمل من أوزار الذين أضلهم؛ من غير أن ينقص من أوزارهم شيء. ذلك أن الشر إذا تحول إلى خطاب منتشر تجاوز صاحبه، وصار يتناسل في العقول والسلوك.

قد يقول الإنسان كلمة ثم ينساها، لكنها تبقى تعمل في قلب آخر. وقد يكتب فكرة تهدم يقيئًا، أو يبزر ظلمًا، أو يزين فاحشة، ثم تنتقل كالدخان من روح إلى روح، فيتضاعف أثرها بعد أن يغيب صاحبها.

إن للكلمات ذرية.

بعضها ينجب نورًا يظل يمشي بين الناس بعد موت قائله، وبعضها ينجب ظلمات تلاحق صاحبها إلى قبره. ولذلك ليس السؤال فقط: ماذا قلت؟ بل: ماذا صنعت كلمتك في الناس؟

وفي عصر تتضاعف فيه الكلمة بلمسة، وتصل إلى الآلاف في لحظات، تتضاعف مسؤولية القائل. فليس الانتشار دليل براءة، ولا كثرة المتابعين شهادة حق، وقد يحمل الإنسان في جهاز صغير أبوابًا من الأوزار لا يدري أين تنتهي آثارها.

فطوبى لمن ترك خلفه كلمة تهدي، وويل لمن ترك لغمًا فكريًا ينفجر في قلوب الأجيال.

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾؛ فما أثقل الحمل حين لا يكون وزر النفس وحدها، بل أوزار خطوات دفعتها إلى الضلال، وقلوب أطفأت فيها مصباح الهداية.

الفصل العاشر

فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ: حِينَ يَنْهَارُ الْبَاطِلُ مِنْ دَاخِلِهِ

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ
السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

للباطل أبنية شاهقة، ومؤسسات راسخة، وحراس وأبواب
وشعارات. يراه الناس واقعاً فيظنون أنه خالد؛ لأن أعينهم تقع
على ارتفاع السقف، ولا ترى هشاشة القواعد.

كان الذين من قبلهم يمكرون، والمكر هندسة خفية للشر: خطط
تُصنع بعيداً عن الأعين، وحبال تنسج في الظلام، ومداخل يُراد
بها تطويق الحق دون أن يشعر أهله. لكن التدبير البشري، مهما
أحكم أصحابه ظاهره، يبقى مكشوقاً لمن لا تخفى عليه خافية.

﴿فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾.

لم يبدأ السقوط من الزينة الخارجية، بل من الأساس. فالله يعلم
النقطة التي يقوم عليها الباطل، فإذا أبطلها صار ارتفاعه نفسه
سبباً في شدة انهياره. وقد يتداعى البناء بالأدوات التي أقامها
أصحابه لحمايته، ويتحول السقف الذي احتموا به إلى ثقل يخر
عليهم.

إن في الآية سنة تتكرر: كل بناء لا يقوم على الحق يحمل
جرثومة سقوطه في داخله. قد يتأخر الانهيار، وقد يخدع الارتفاع

أعينَ جيل كامل، لكن الظلم لا يملك مقومات الخلود. لأنه يصنع أعداءه بنفسه، ويهدم الثقة بين رجاله، ويحوّل الخوف إلى أساس للطاعة، فإذا زال الخوف لحظةً انكشف أن البناء كان فراغًا متماسكًا بالقهر.

والأنظمة والأفكار والعلاقات الشخصية كلها تخضع لهذا القانون. ما بُني على الكذب يحتاج إلى كذب جديد كل يوم، وما بُني على الخيانة يعيش في رعب دائم من انكشافها، وما بُني على المصالح وحدها يتهاوى عند أول تضارب للمصالح.

الحق قد يتأخر ظهوره، لكنه يستمد بقاءه من ذاته. أما الباطل فيحتاج في كل لحظة إلى من يسنده، ويجملّه، ويخفي شقوقه، ويمنع الناس من الاقتراب من قواعده.

﴿وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

كانوا يراقبون الجهات التي يتوقعون منها الخطر، فجاءهم من الجهة التي أهملوها. وهذه بعض قدرة الله: أن يجعل في الشيء الذي حسبه الظالم حصنًا منفذًا لهلاكه، وفي الشخص الذي اطمأن إليه شاهدًا عليه، وفي الخطة التي دبّرها لغيره دائرة تعود إليه.

الإنسان يقدر بناءً على ما يعلم، والله يعلم ما غاب عنه. ولذلك لا ينبغي للمؤمن أن يفتنه إحكام المكر، ولا أن يحسب أن الظالم أغلق كل أبواب النجاة؛ فهناك دائمًا أبواب لا يراها الماكر،

وأَسباب لم تدخل في حسابه، ولحظة يختل فيها كل ما ظنه محكمًا.

ثم ينتقل المشهد من انهيار البنيان في الدنيا إلى انكشاف العار في الآخرة:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

في الدنيا كانوا يحمون الباطل، ويخاصمون من أجله، ويقدمونه للناس في صورة القوة والقداسة. فإذا جاء يوم القيامة سقطت الصورة، وانكشف الإفلاس: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ؟﴾

إنه سؤال توبيخ يكشف الغياب الكامل لكل ما تعلقوا به. أين الذين منحتموهم ولاءكم؟ أين من خفتموهم أكثر من الله؟ أين من عصيتم الله طلبًا لرضاهم؟ أين الشعارات التي تقاتلتم تحتها؟ أين النفوذ الذي ظننتم أنه يمنعكم من الحساب؟

كل الآلهة المصنوعة تختفي ساعة الحاجة الحقيقية.

وحينئذ يتكلم أهل العلم: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. ففي الدنيا قد يرفع الجهل أصحابه ويُقصي العلماء، وقد يملك المبطل المنبر ويُحاصر صاحب الحق؛ لكن القيامة يوم تعود فيه الأسماء إلى حقائقها، والموازن إلى استقامتها.

الفصل الحادي عشر

الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ: لَحْظَةً تَسْقُطُ فِيهَا
الْأَعْدَارُ

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ
مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٥٢ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئِنْ مَتَوْا لَمُتُوا الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

يسميهم القرآن: ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾.

إنهم لم يظلموا الحقيقة وحدها، بل ظلموا أنفسهم قبل كل شيء. فالطاعة لا تزيد في ملك الله، والمعصية لا تنقص منه، وإنما يعود أثر الطريق على سالكه. كل خطيئة جرح في الروح، وكل كبر حجاب على القلب، وكل إعراض خطوة تحمل صاحبها بعيداً عن نجاته.

وما أشد غفلة الإنسان حين يحسب أن معصيته تحرر من سلطان الله، وهي في حقيقتها عبودية للهوى وإضرار بالنفس!

حين تأتي الملائكة، يلقي أولئك السَّلَمَ بعد أن انتهى زمن الاختيار: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾. ينكرون، كما اعتادوا في الدنيا أن ينكروا، وكان الكذب الذي أنجاهم أحياناً أمام محاكم البشر سينجيهم أمام علم الله.

لكن الجواب يأتي قاطعاً: ﴿بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

هناك لا تنفع صياغة الرواية، ولا انتقاء الشهود، ولا إخفاء الوثائق. فالذي يحاكم يعلم السر، وقد حفظ العمل قبل أن يفكر صاحبه في إنكاره.

ومن المثير أن تختتم الآيات مصيرهم بوصفهم: **(الْمُتَكَبِّرِينَ)**. وكأن الكبر كان الجذر الذي نبتت منه سائر الأغصان. استكبروا عن الاعتراف بالحق، ثم استكبروا عن التوبة، ثم استكبروا عن إنصاف الناس؛ حتى ساقهم الكبر إلى دار الهوان.

إن المتكبر يريد الارتفاع، لكن الكبر أقصر الطرق إلى السقوط. يريد أن يكبر في أعين الخلق، فيصغر عند الخالق. أما المتواضع لله فإنه يخفض جناحه على الأرض، بينما ترتفع منزلته في السماء.

الفصل الثَّانِي عَشَرَ

مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا خَيْرًا

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ۝ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

السؤال نفسه وُجِّه من قبل إلى المستكبرين: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾، فقالوا: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. وهنا يوجِّه إلى أهل التقوى، فيجيبون بكلمة واحدة: ﴿خَيْرًا﴾.

الوحي واحد، لكن القلوب مختلفة.

المطر الذي يوقظ الأرض الخصبة قد لا يزيد الصخرة إلا ابتلاًا من ظاهرها. والشمس التي تذيب الجليد تزيد الطين صلابة. ليست القضية دائمًا في النور، بل في طبيعة العين التي تستقبله.

أهل الكبر نظروا إلى الوحي من وراء مصالحهم، فأروه خطرًا على سلطانهم. وأهل التقوى استقبلوه بقلوب طالبة للهداية، فأروا فيه الخير كله.

﴿قَالُوا خَيْرًا﴾؛ فلم يقولوا: أنزل أحكامًا فحسب، أو أخبارًا فحسب، بل جمعوا الوحي كله في كلمة الخير. خير في مصدره، وخير في مقصده، وخير في أوامره، وخير في نواهيه، وخير فيما يمنحه للروح من بصيرة.

حتى ما يبدو في التكليف شاقًا هو خير؛ لأن الطبيب قد يمنعك مما تشتهي رحمة بك، والطريق الآمن قد يكون أصعب من المنحدر المؤدي إلى الهلاك. ليس الخير ما وافق الهوى دائمًا، بل ما أصلح الإنسان وبلغه غايته.

ثم تقول الآيات: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

لا يؤجل الله كل ثمرات الإحسان إلى الآخرة. للإحسان حسنته في الدنيا أيضًا: طمأنينة الضمير، ونور القلب، وبركة الأثر، ومحبة صادقة يضعها الله للعبد، وثبات حين تضطرب النفوس.

وقد يمر المحسن بالابتلاء، لكن الابتلاء لا يسلبه حسنته الباطنة. وربما ضاقت به الأرض، وقلبه أوسع من قصور الظالمين. إن حسنات الدنيا ليست كلها مآلاً وصحةً وانتصارًا ظاهرًا؛ فمن أعظمها قلب لم تفسده الأحقاد، وروح تعرف إلى من تلجأ، وضمير ينام دون أن تطارده دمة مظلوم.

ثم قال: ﴿وَلَذَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾.

خير بلا انقطاع، ولا خوف من زواله، ولا نقص يكدره. ففي الدنيا ما من نعمة إلا وتجاورها خشية الفقد، وما من لقاء إلا ويقف الفراق في آخر الطريق. أما دار الآخرة، فنعيمها لا يهرم، وفرحها لا ينقلب حزناً، وأهلها لا يهددهم الموت.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾؛ إقامة لا رحيل بعدها. **﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾**؛ لأن نفوسهم قد طهرت، فلا تشتهي إلا ما يليق بدار الطهر. وفي الدنيا كثيراً ما يشاء الإنسان ما لا يجد، أو يجد ما لا يدوم، أو يدوم له ما لم يعد يشتهي. أما هناك فتلتقي المشيئة والقدرة والدوام في نعيم لا ينفد.

الفصل الثالث عشر

طِبِّتُمْ فَأَدْخُلُوهَا: نِهَايَةُ الرِّحْلَةِ الطَّيِّبَةِ

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قبل قليل رأينا الملائكة تتوفى أناسًا ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، وهنا تتوفى آخرين ﴿طَيِّبِينَ﴾. الموت واحد في ظاهره، لكنه بابان مختلفان: باب إلى الخزي، وباب يفتح على السلام.

ليس السؤال: هل نموت؟ فهذه حقيقة يتساوى فيها الجميع.
السؤال: على أي حال تلقانا الملائكة؟

﴿طَيِّبِينَ﴾؛ طابت عقائدهم من الشرك، وقلوبهم من النفاق، وألسنتهم من الكذب، وأعمالهم من الظلم. لم يكونوا معصومين من الخطأ، لكنهم كانوا يعودون بالتوبة، وينظفون أرواحهم كلما علق بها غبار الطريق.

إن الطيب ليس ادعاء مثالية، بل اتجاه مستمر نحو التطهر.

وما أجمل أن تكون أول كلمة يستقبل بها المؤمن عالم الغيب: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾. بعد مخاوف الدنيا، واضطرابها، وفتنها، وخصوماتها، يصل إلى الشاطئ الذي لا خوف فيه.

سُورَةُ النَّحْلِ

سلام عليكم من كل ما كان يفزعكم.
سلام عليكم من الموت، فقد عبرتموه.
سلام عليكم من الظلم، فلا سلطان له هنا.
سلام عليكم من الفقد، فلا فراق بعد اليوم.
سلام عليكم من قلق المصير، فقد صار المصير أماناً.

إن المؤمن حين يموت لا يخرج من الحياة إلى العدم، بل يخرج
من دار القلق إلى أول بشائر السلام.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. والأعمال سبب للدخول، أما
أصل الفضل والقبول فبرحمة الله. لقد كانت أعمالهم دليل
صدقهم، وكانت رحمة الله أعظم من أن تحيط بها أعمالهم.

الفصل الرابع عشر

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ؟

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝
فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

ما الذي ينتظره الإنسان بعد وضوح الدليل؟ أهو ينتظر أن يرى
الملائكة حتى يؤمن؟ أم ينتظر أن يأتي العذاب فيتحول التصديق
إلى حقيقة مفروضة لا اختيار فيها؟

هناك لحظة إذا جاء فيها اليقين لم يعد الإيمان بها نافعا؛ لأن قيمة
الإيمان أن تختار الحق قبل أن ترى الغيب عيانا، وأن تستجيب
للإنذار قبل أن يصبح العذاب حاضرا.

إن بعض الناس يؤجلون إصلاح حياتهم وهم ينتظرون حدثا
يهزمهم: مرضا، أو موت قريبا، أو خسارة، أو شيخوخة. كأن
الإنسان لا يستطيع أن يستيقظ إلا إذا صفعته المصيبة. لكن من
الحكمة أن تستيقظ بصوت الوحي قبل أن يوقظك الألم.

ليس كل من عرف الحقيقة في النهاية ناجيا؛ فقد يعرفها بعد
انقضاء زمن العمل. سيعرف الجميع عند الموت أن الآخرة حق،
لكن المعرفة يومئذ لا تعيد ساعة ضاعت ولا سجدة تركت.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هذا أصل عظيم في فهم الجزاء: الله لا يظلم أحدًا. لا يهلك عبدًا بلا حجة، ولا يؤاخذ به غير عمل، ولا ينقصه حسنة. الإنسان هو الذي يصنع بمواقفه الطريق الذي ينتهي إليه.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾.

كأن السيئات التي أرسلوها في الحياة عادت تبحث عن أصحابها. العمل لا يختفي؛ قد يغيب عن ذاكرة فاعله، لكنه يظل محفوظًا في ميزان الله. وما يزرعه المرء سرًا يحصده يومًا علانية.

أما ما كانوا به يستهزئون فقد ﴿حَاقَ بِهِمْ﴾؛ أحاط بهم من كل جهة. كانوا يجعلونه مادة للضحك، فإذا به يصبح واقعًا يطبق عليهم. إن الاستهزاء بالحقيقة لا يدفعها، بل قد يحرم المستهزئ فرصة فهمها حتى تفجأه.

الفصل الخامس عشر

لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا: حِينَ يَتَحَوَّلُ الْقَدَرُ إِلَى ذَرِيعَةٍ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

حين عجز المشركون عن تبرير شركهم، احتموا بالقدر: لو شاء الله ما أشركنا، وما حرّمنا من عند أنفسنا.

إنها حجة قديمة تتبدل ألفاظها ولا يتبدل جوهرها: أن يجعل الإنسان من مشيئة الله الكونية عذراً لمعصيته، مع أن الله أعطاه الاختيار، وأرسل إليه الرسل، وبيّن له الطريق، وأمره ونهاه.

لو كان وقوع الفعل دليلاً على رضا الله عنه، لما كان للرسل معنى، ولا للأمر والنهي، ولا للثواب والعقاب. إن الله قد يشاء كوناً أن يقع ما لا يحبه شرعاً؛ ابتلاءً للإنسان وإظهاراً لاختياره.

فالمرض يقع بمشيئة الله، لكنه ليس مأموراً به. والظلم يقع في ملك الله، لكنه ليس محبوباً عنده. والكفر لا يخرج عن قدره، لكنه مخالف لأمره.

وقد أعطى الله الإنسان قدرة وإرادةً تقعان تحت مشيئته سبحانه، ثم حمّله مسؤولية اختياره. ولذلك لا يحتج المرء بالقدر قبل المعصية، بل يخطط لها ويسعى، فإذا ظهرت عاقبتها تذكر القدر!

لا يقول السارق وهو يمد يده: سأنتظر ما يقدره الله؛ بل يختار الوقت، ويراقب الباب، ويخفي أثره. فإذا أخذ قال: هذا مكتوب. إنه يستعمل الاختيار عند تحصيل الشهوة، ويستعمل القدر عند دفع المسؤولية.

أما المؤمن فيفهم القدر فهماً يثمر العمل والسكينة: يعمل لأن الله أمره، فإذا وقع ما لا يملك دفعه رضي لأن الله قدره. القدر يُستقبل به ما لا تستطيع تغييره، لا يُبرر به ما طُلب منك تغييره.

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

الرسول لا يجبر القلوب، وإنما يضع الحقيقة أمامها واضحة. والبلاغ المبين يحرر الداعية من وهم السيطرة على النتائج. عليه أن يصدق ويبين ويحسن الطريق إلى المعنى، أما فتح القلوب فبيد الله.

قد تزرع الكلمة ولا ترى ثمرتها، لكن عدم ظهور الأثر لا يعني ضياع البلاغ. يكفي أن تؤدي الأمانة، دون أن تحوّل الدعوة إلى استعلاء على الناس أو إكراه لهم.

الفصل السادس عشر

اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ: الرِّسَالَةُ الْوَاحِدَةُ فِي مَوْكِبِ
النُّبُوتِ

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ
فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾.

تعدد الرسل، وتنوعت الأزمنة والألسنة، لكن الرسالة في أصلها
واحدة:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

أمرٌ بالولاء لله، وأمرٌ بالتححرر من كل ما يُعبد أو يُطاع في
معصيته أو يتجاوز به العبد حده. فلا يكتمل التوحيد بإثبات
العبودية لله وحدها في اللسان، بل لا بد من اجتناب الطاغوت.

ولفظ ﴿اجْتَنِبُوا﴾ أبلغ من قول: لا تعبدوا؛ لأنه يطلب الابتعاد عن
طرق الطغيان ومقدماته ومجالات سطوته على القلب. فبعض
الأشياء لا يكفي أن تمتنع عنها وأنت واقف عند بابها؛ بل ينبغي
أن تجعل بينك وبينها مسافة تحفظ قلبك.

والطاغوت ليس صنمًا حجريًا فقط؛ إنه كل قوة تتجاوز حدها،
وتطلب من الإنسان ولاءً يناقض ولاءه لله. قد يكون حاكمًا يشرع
الظلم ويطلب تقديسه، أو هوى يفرض سلطانه، أو عرفًا اجتماعيًا

يجعل رضا الناس مقدماً على الحق، أو مآلاً يتحول من وسيلة إلى سيد.

إن التوحيد أعظم ثورة تحريرية عرفتها الروح؛ لأنه ينزع عنها كل العبوديات الصغيرة، ويعيدها إلى عبودية واحدة هي عين الكرامة. فالعبد لله لا يكون عبداً للعبد، ومن خضع للخالق تحرر من الخوف المذل من المخلوق.

ثم تأمر الآية بالسير في الأرض: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

التاريخ في القرآن ليس سرداً لما انقضى، بل مختبراً للسنن. والأطلال ليست حجارة صامتة؛ إنها صفحات بقيت بعدما غاب أصحابها. تقول للمارين: مرّ من هنا قوم ظنوا أن قوتهم تمنعهم، ثم رحلوا وبقيت العبرة.

إن الأمة التي لا تقرأ مصائر من قبلها قد تعيد أخطاءهم وهي تظن نفسها مبتكرة. تتغير الأسماء، لكن قوانين السقوط لا تتغير: ظلم يفسد الداخل، وترف يعمي البصائر، وكبر يرفض الإصلاح، ثم انهيار يبدأ حين يظن الجميع أن البناء بلغ ذروة القوة.

الفصل السَّابِعُ عَشَرَ

إِنْ تَحَرَّصْ عَلَى هُدَاهُمْ: حُدُودُ الدَّاعِيَةِ وَحَرِيَّةُ الْقَلْبِ

﴿إِنْ تَحَرَّصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

في هذه الآية مواساة للنبي ﷺ، ولكل قلب يحمل همَّ هداية الناس. فقد يبلغ الحرص بالداعية أن يحزن على من أعرض، ويشعر أن عدم استجابته قصور في البلاغ. فتزداد الآية الأمور إلى مواضعها: أنت تدعو، وتبين، وترحم، وتصبر؛ لكنك لا تملك مفاتيح القلوب.

الهداية ليست اقتحامًا قسريًا لداخل الإنسان. لا بد أن يفتح القلب نافذة للحق، وأن يطلبه بصدق. أما من اختار الضلالة وأصر عليها حتى صارت وصفًا راسخًا له، فإن الحرص البشري وحده لا ينقذه.

في هذا المعنى حماية للداعية من اليأس ومن الاستبداد معًا: لا ييأس لأن النتيجة بيد الله، ولا يستبد لأنه ليس مالكًا للقلوب. إنه شاهد ومبلغ، لا وصي على الضمائر.

وقد يؤلمك أن ترى إنساناً تحبه يمشي في الطريق الخطأ،
فنتصحه مرة بعد مرة، لكنه يغلق كل باب. تذكر حينئذ أن المحبة
لا تمنحك سلطة تغيير قلبه، وأن لك أن تدعو له وتبذل السبب،
لكن ليس عليك أن تهلك نفسك عند عتبة اختياره.

إن بعض القلوب لا ينقصها الدليل، بل تنقصها إرادة الإنصاف.
وقد يرى الإنسان النور ثم يغمض عينيه؛ لا لأن النور خافت،
بل لأنه يريد الظلام.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾؛ فمن ترك هداية الله فلن يجد قوة تعوضه
عنها، ومن خذله اختياره لن تنقذه كثرة الأنصار. قد تحيط
بالإنسان جماعة تصفق له في الباطل، لكنها تتلاشى حين يأتي
الحساب، ويقف منفرداً أمام نتيجة ما اختار.

أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، وَأَسْتَمِرُّ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ.

الفصل الثامن عشر

بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا: الْبَعْثُ الَّذِي اسْتَبَعَدَهُ الْإِنْسَانُ

﴿وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٢﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ما أعجب أن يقسم الإنسان بالله على أن الله لا يفعل!

يستعملون اسم الله توكيداً لإنكار قدرة الله، ويجعلون أيمانهم الغليظة ستاراً يخفون خلفه خواء حجتهم: ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾.

كانوا يقيسون القدرة الإلهية بعجزهم. يرون الجسد وقد تفرق في التراب، فيستبعدون جمعه؛ لأنهم لا يستطيعون ذلك. غير أن العجز عن تصور الكيفية لا يعني استحالة الحقيقة. وكم من أمر كان عند الأجيال الماضية خارج حدود التصور، ثم صار في حياة من بعدهم واقعاً معتاداً!

فكيف إذا كان الفاعل هو الله الذي خلق الإنسان أول مرة من عدم؟

إن الذي بدأ الخلق لا يعجزه أن يعيده، والذي استخرج الإنسان من نطفة لا يعجزه أن يجمعه من تراب، والذي يحيي الأرض بعد موتها يعيد الأجساد بعد فنائها.

يأتي الرد في كلمة واحدة قاطعة: ﴿بَلَىٰ﴾.

بلى؛ سيبعثهم الله.

بلى؛ ستعود الأجساد.

بلى؛ ستتكشف السرائر.

بلى؛ سيقف الظالم والمظلوم بين يدي حكم عدل.

بلى؛ لن تنتهي القصة عند حفرة في الأرض.

﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾.

ولولا البعث لبقيت صفحات كثيرة من الحياة بلا خاتمة عادلة. كم من مظلوم مات ولم ير إنصافه، وكم من قاتل نجا من محاكم الأرض، وكم من صالح عاش مغمورًا ورحل دون أن يعرف الناس قدره! إن الآخرة ضرورة أخلاقية يكتمل بها معنى العدل، ويستقيم بها بناء الوجود.

ليست القيامة خبرًا يراد به تخويف الناس فحسب، بل هي وعد للذين سحقهم الظلم أن الحقيقة لم تُغلق ملفاتها بعد. قد يموت الشاهد، وتضيع الوثيقة، ويعلو صوت الجاني، لكن محكمة الله لا تحتاج إلى شاهد غائب؛ لأن علمه أحاط بالفعل والنية والأثر.

﴿الْيَبِينُ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾.

في الدنيا تتداخل الأصوات، ويملك الباطل وسائل الزينة، وتنشعب الروايات، وقد يموت الإنسان قبل أن يعرف وجه الصواب في قضايا كثيرة. أما القيامة فهي يوم البيان الكامل؛ يوم تنزع عن الوقائع أغلفتها، ويظهر من كان صادقاً ومن كان يصنع صورة الصدق.

هناك لا تبقى الحقيقة وجهة نظر، ولا يستطيع صاحب النفوذ أن يكتب الرواية الأخيرة. سيعلم المكذبون أنهم كانوا كاذبين، لكن العلم المتأخر يصبح حجة عليهم لا باب نجاة لهم.

ثم تهدم الآية استبعادهم للبعث ببيان بساطة الأمر أمام القدرة المطلقة:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

لا تعب، ولا معالجة، ولا زمن يحتاجه الله ليكتمل به العمل؛ فهذه كلها أحوال المخلوق المحدود. أما الله سبحانه، فإذا أراد شيئاً لم تقف أمام إرادته مادة، ولا مسافة، ولا قانون؛ لأن المادة والقوانين كلها من خلقه.

﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ليست مجرد بيان للقدرة، بل دواء لقلب المؤمن حين يرى الأبواب مغلقة. فلا ييأس لأن الأسباب ضعفت؛ فالأسباب لا تمنح الله القدرة، وإنما تستمد قدرتها منه. وقد يفتح الله بابًا بكلمة قدرية لم يكن في حساب البشر.

لكنها لا تعني ترك العمل وانتظار الخوارق؛ بل تعني أن تبذل ما تستطيع دون أن تحصر إمكانات الله فيما تستطيع. تعمل بالأسباب، وقلبك متعلق بمن يقول للشيء: كن فيكون.

الفصل التاسع عشر

الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ: حِينَ يَتْرُكُ الْمُؤْمِنُ مَكَانَهُ وَلَا يَتْرُكُ مَبْدَأَهُ

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

الهجرة اقتلاع موجد.

أن يترك الإنسان بيتاً عرف زواياه، وأرضاً حفظت خطواته، ووجوهاً ألفها، ثم يخرج لأن الباطل لم يترك له مساحة يعيش فيها بإيمانه. ليست الهجرة انتقال جسد من موضع إلى موضع؛ إنها امتحان يكشف أيهما أثقل في القلب: الأرض أم العقيدة؟

قال تعالى: ﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾؛ فالهجرة لا تكتسب شرفها من المشقة وحدها، بل من وجهتها الباطنة. قد يهاجر الإنسان طلباً للرزق أو نجاة بالنفس، وذلك مباح؛ لكن الذين تتحدث عنهم الآية جعلوا هجرتهم لله، خرجوا حفاظاً على دينهم وانتصاراً لحقهم.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾.

لم يخرجوا لأنهم كرهوا أوطانهم، بل لأن الظلم ضيق عليهم معنى الوطن. فالوطن ليس تراثاً فحسب؛ إنه أمان وكرامة وحق في أن تعبد الله دون إكراه. فإذا تحولت الأرض إلى سجن للضمير، صار الخروج منها طلباً للحرية التي خلق الله الإنسان عليها.

ويعدهم الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾.

لقد تركوا شيئاً لله، فتكفل الله أن يهيئ لهم موضعاً خيراً. قد يبدو المهاجر لحظة خروجه خاسراً: خلفه بيت صادرة الظالم، وأمامه طريق مجهول. لكن الحساب الإيماني لا يتوقف عند لحظة الفقد؛ فما خرج من اليد لله يعود إليها أو إلى القلب في صورة أوسع وأنقى.

ليس التعويض الإلهي نسخة مطابقة لما فقدته الإنسان دائماً. قد يأخذ منه مكاناً ويمنحه رسالة، أو يسلبه جماعة خذلتها ويهبه قلوباً صادقة، أو يخرج من ضيق مألوف إلى سعة لم يكن يتصورها.

ثم إن حسنة الدنيا، مهما عظمت، ليست نهاية العطاء: ﴿وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾. لأن ما فقدوه في الدنيا محدود، وما أعده الله لهم لا تحده الأيام.

وقد جمعت الآية التالية زاد المهاجرين كله في خصلتين:

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

الصبر يحفظهم من الانهيار أمام مشقة الطريق، والتوكل يحفظهم من الخوف من مجهول النهاية. الصبر ثبات القدم، والتوكل طمأنينة القلب. ولو صبر المرء بلا توكل لتصلب وهو مثقل بالقلق، ولو ادعى التوكل بلا صبر صار تواكله أمنية بلا ثبات.

وتأمل تقديم الجار والمجرور: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ على ربهم لا على قوتهم، ولا على عددهم، ولا على خططهم، وإن أخذوا بها جميعًا. فالأسباب أيدي تعمل، أما القلب فلا يستند إلا إلى الله.

الفصل العِشْرُونَ

فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ: التَّوَّاضُّعُ الَّذِي يَفْتَحُ أَبْوَابَ الْمَعْرِفَةِ

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

استنكر المشركون أن يكون الرسول بشراً، كأن الرسالة لا بد أن يحملها كائن من طبيعة أخرى. فجاء الجواب: هذه سنة الله في النبوات؛ رجال يوحى إليهم، يعيشون بين الناس، ويفهمون ضعفهم وحاجاتهم، ويجسدون الوحي في حياة بشرية يمكن الاقتداء بها.

لو كان الرسول ملكاً لقال الناس: وكيف نطيق ما يطيق وهو ليس من جنسنا؟ فجاء الرسول بشراً يجوع ويشبع، ويحزن ويفرح، ويبتلى ويصبر؛ ليكون سلوكه دليلاً على أن الوحي قابل لأن يُعاش في الأرض، لا فكرة بعيدة معلقة في السماء.

ثم أرست الآية قاعدة عظيمة:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

إن قول الإنسان: لا أعلم، ليس نقصاً في العقل، بل بداية نضجه. أما الخطر فهو أن يجهل ثم يتكلم بثقة، فيضاعف الجهل جهلين: جهلاً بالحقيقة، وجهلاً بحدود نفسه.

السؤال اعتراف شريف بالحاجة إلى المعرفة. ومن تواضع للسؤال اقترب من الجواب، ومن استكبر أن يسأل بقي سجين ما يظنه علماً.

لكن الآية لم تقل: فاسألوا أي أحد؛ بل ﴿أَهْلَ الذِّكْرِ﴾. فليست الشهرة علماً، ولا كثرة الكلام أهلية، ولا سهولة الوصول إلى الرأي دليلاً على صوابه. لكل مجال أهله الذين جمعوا المعرفة والأمانة، ومن أخذ دينه أو صحته أو حقوقه من غير أهلها فقد سلّم مصيره إلى التخمين.

وفي زمن صار فيه كل شخص قادراً على مخاطبة الآلاف، ازدادت الحاجة إلى التمييز بين من يملك منصة ومن يملك علماً. قد يرتفع الصوت لأن أدوات النشر حملته، لا لأن الحجة رفعت. ثم بيّن الله وظيفة الرسول ﷺ:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

فالسنة بيان للقرآن، والرسول ﷺ ليس ناقل ألفاظ فحسب، بل مبين مراد الله بقوله وفعله وتقريره. ومن أراد القرآن معزولاً عن بيان الرسول فقد أبعد النص عن المبيّن الذي اختاره الله له.

والتعبير: ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يحمل معنى القرب والتشريف؛ فالقرآن نزل إلى الناس، يخاطب حياتهم، ويجب عن أسئلتهم الكبرى،

ويخرجهم من الظلمات. لم ينزل ليكون زينة على الرفوف، ولا صوتاً جميلاً في المآتم وحدها؛ بل منهاجاً يفهم ويُعاش.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

فالبيان لا يلغي التفكير، بل يفتحه. والوحي لا يعطل العقل، بل يحرره من التيه ويمنحه النور الذي يرى به. إن التفكير المطلوب ليس تحميل النص ما لا يحتمل، ولا اقتلاع الآية من معناها؛ بل تدبر هدايتها بعد فهمها في لسانها وسياقها وبيان الرسول ﷺ.

الفصل الحادي والعشرون

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ؟ اهْتَزَّازُ الْأَمَانِ الزَّائِفِ

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ
الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۝ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَمَا هُمْ
بِمُعْجِزِينَ ۝ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

السؤال ليس: هل يملك الله أخذهم؟ بل: من أين جاءهم هذا الأمن؟

﴿أَفَأَمِنَ﴾؛ وهي كلمة تهز حالة الاطمئنان الكاذب التي يعيشها
الماكر حين تتأخر العقوبة. لقد خطط ونجح، وظلم ولم يؤخذ،
فتوهم أن مهارته تحميه، وأن السيطرة التي أحكمها صارت
ضماناً للمستقبل.

لكن هل يملك الأرض التي يقف عليها حتى يضمن ألا تخسف
به؟ وهل يملك الزمن حتى يمنع المفاجأة؟ وهل أحاط بكل
المداخل التي قد يأتيه منها العذاب؟

الإنسان ضعيف، لكن أخطر ضعفه أنه قد ينساه.

قد يهلك وهو في ذروة قلبه في البلاد، منشغل بتجارته وسلطانه،
لا ينتظر إلا مزيداً من القوة. وقد يأتيه الأخذ ﴿عَلَى تَخَوُّفٍ﴾؛ أي
على تنقص تدريجي، يرى الأطراف تتآكل، والأسباب تتساقط،
والقوة تنكمش شيئاً فشيئاً.

وهذا الأخذ المتدرج قد يكون أشد في الإنذار؛ لأن الله يري العبد مقدماته لعل قلبه يرجع. تسقط دعامة ثم أخرى، وتأتي رسالة بعد أخرى، ويبقى باب التوبة مفتوحًا.

ولهذا خُتِمت آيات التخويف بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

قد يبدو ذكر الرأفة بعد صور الأخذ مفاجئًا، لكنه يكشف أن التحذير نفسه رحمة. فالذي ينبهك إلى الحفرة قبل أن تقع فيها يرحمك، والذي يكشف لك عاقبة الطريق لا يريد هلاكك، بل يريد رجوعك.

حتى المصيبة التي توقظ القلب قد تكون رأفة في ثوب الألم؛ لأنها توقف الإنسان قبل الهاوية. وليس كل عطاء رحمة، ولا كل منع قسوة. قد يعطيك الله فتزداد بُعْدًا، وقد يأخذ منك شيئًا فتعود إليه، فتكون عودتك أعظم من المفقود.

الفصل الثاني والعشرون

ظِلَالٌ تَسْجُدُ: الْكَوْنُ الَّذِي يَعْبُدُ وَالْإِنْسَانُ الَّذِي يَغْفُلُ

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ
وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ
رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

تأخذ السورة بأعيننا إلى مشهد نراه كل يوم ولا نقرأ معناه:
الظلال وهي تميل مع حركة الشمس، مرة عن اليمين ومرة عن
الشمال.

يسمي القرآن هذا الامتداد والانحسار سجوداً: ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ
دَاخِرُونَ﴾.

إن الظل الذي نحسبه ظاهرة صامتة داخل في موكب العبودية
الكوني. كل شيء يخضع للقانون الذي أودعه الله فيه، ويتحرك
في الحدود التي رسمها له. لا تعترض الشجرة على امتداد ظلها،
ولا يخرج الكوكب من مداره، ولا ترفض الخلية وظيفتها.

الكون كله مسجد واسع، وكل موجود فيه يؤدي صلاته بالطريقة
التي ألهمه الله إياها.

وحين يسجد المؤمن، لا يبدأ عبادة غريبة عن نظام الوجود؛ بل ينضم بوعيه واختياره إلى سجود الخلق كله. يضع جبهته على الأرض التي تسبح، وتظله سماء تسبح، ويسري في عروقه دم تتحرك خلاياه بأمر الله.

أما المستكبر عن السجود فهو النعمة الناشزة في هذا النشيد الكوني. ظله يسجد وهو يرفض، وأعضاؤه تعمل بأمر الله وهو يعصيه بها. وما أعجب أن يكون ظل الإنسان أطوع لله من قلبه!

ثم تتسع صورة السجود: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ﴾.

الملائكة، على طهرهم وقربهم، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾. فالاستكبار لا يصنعه كمال المنزلة، بل فساد النفس. وكلما عرف العبد عظمة الله حقًا ازداد خضوعًا؛ لأن من عرف نفسه وعرف ربه استحيا أن يتكبر.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾؛ فوقية تليق بجلاله وعظمته، من غير تشبيه ولا تكييف، وهو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾. يخافونه خوف إجلال ومعرفة، لا خوفًا يقطعهم عن رحمته.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

لا فجوة عند الملائكة بين المعرفة والعمل. أما الإنسان فقد يعرف ثم يؤجل، ويقتنع ثم يساوم، ويسمع الأمر ثم يبحث عن مخرج تريجه منه.

إن تمام العبودية ألا يبقى الأمر الإلهي فكرة محترمة في الذهن، بل يتحول إلى فعل في الحياة. فما قيمة أن تعرف فضل الصدق ثم تكذب حين تهدد مصلحتك؟ وما أثر الإيمان بالعدل إذا ظلمت من تقدر عليه؟

الكون لا يشرح عبوديته بالكلمات؛ إنه يؤديها. وكذلك المؤمن الصادق: تصبح حياته تفسيرًا لما يؤمن به.

الفصل الثالث والعشرون

لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ: قَلْبٌ لَا يَسْتَقِيمُ عَلَى قِبَلَتَيْنِ

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾
 ○ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾.

التوحيد ليس مجرد عدد؛ إنه وحدة الوجهة.

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾؛ واحد في ألوهيته، وربوبيته، وكماله، لا شريك له ولا مثيل. وإذا كان الإله واحداً، فلا ينبغي أن يتوزع القلب بين ولاءات متناقضة.

القلب لا يستقيم على قِبَلَتَيْنِ. قد يجمع الإنسان مصالح متعددة، لكنه لا يستطيع أن يجعل مرجعيته العليا موزعة بين الله والهوى. لا بد في لحظة الاختبار أن يظهر من المقدم: أمر الله أم رغبة النفس؟ الحق أم رضا الجماعة؟ الضمير أم ثمن المنصب؟

﴿فَأِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾؛ قُدِّمَ ضمير الاختصاص حتى لا يبقى في الخوف التعبدي موضع لغير الله. فإذا استقر هذا الخوف في القلب، تحرر الإنسان من المخاوف الصغيرة التي تصنعها قوى الأرض.

من خاف الله لم يَعُدْ عديم الخوف، لكنه صار يزن المخاوف بميزان مختلف. قد يتألم، وقد يتوجس، لكنه لا يبيع الحق لينجو؛ لأنه يعلم أن النجاة ليست في يد من يهدده.

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾؛ أي خالصًا دائمًا ثابتًا. فالدين ليس ثوبًا يلبسه المرء في موسم، ثم ينزعه عند المصالح، ولا موقفًا مؤقتًا تحكمه الظروف. إنه عبودية مستمرة ما دام القلب ينبض.

ثم يأتي السؤال الذي يفصح التناقض: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾؟

كيف تتقون غيره وكل ما في السماوات والأرض ملكه؟ كيف تمنحون الخوف المطلق لمخلوق يتحرك داخل ملك الله، ولا يخرج عن قضائه؟

إن المخلوق الذي تخشاه لا يملك لنفسه يومًا زائدًا في عمره، ولا نبضة في قلبه، ولا نفسًا يدخل رنتيه إلا بإذن الله. فخذ به بحجمه الحقيقي، ولا تضخمه في قلبك حتى يحجب عنك عظمة الخالق.

الفصل الرَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ: حَقِيقَةٌ تَطْهَرُ الْقَلْبَ مِنَ الْغُرُورِ

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿١﴾
ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٢﴾
لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.

آية قصيرة، لكنها تعيد ترتيب الإنسان من داخله. فما من نعمة تحيط بك، أو تستقر في جسدك، أو تسكن بيتك، أو تضيء قلبك، إلا ومبدؤها من الله.

قال: ﴿وَمَا بِكُمْ﴾، لا: وما عندكم فحسب؛ ليشمل النعم التي صارت جزءاً من كيانكم حتى نسيتم أنها نِعَم. السمع الذي تسمع به، والعقل الذي تفهم به، واللسان الذي تعبر به، والذاكرة التي تحفظ أسماء أحبائكم، والقلب الذي يرسل الدم في عروقك دون استئذانك؛ كل ذلك من الله.

وقد تأتيتك النعمة على يد إنسان، لكن اليد سبب، والمنعم في الحقيقة هو الله. هو الذي أوجد اليد، وألقى في قلب صاحبها إرادة العطاء، ويسر لقاءكما، وفتح لك باب الانتفاع. وشكر الناس من شكر الله، لكن القلب لا يقف عند الوسيلة وينسى المسبب.

إن هذه الآية تحرر النفس من غرور الإنجاز. لا تنكر سعيك، لكنها تريك ما وراءه: من منحك القدرة على السعي؟ ومن هيأ الظروف؟ ومن صرف عنك عوائق لم تعلم بها؟

تقول: صنعتُ نجاحي؛ لكنك لم تصنع عقلك، ولا صحتك، ولا الزمن الذي وُلدت فيه، ولا الفرص التي فُتحت أمامك، ولا الأشخاص الذين أعانوك. لقد سعيت، نعم، لكنك سعيت فوق أرض من النعم لم تفرشها بنفسك.

ومع ذلك، حين تمس الإنسان الشدة، تنكشف فطرته: ﴿فَالْيَهُ تَجَارُونَ﴾.

والجوار هو رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة. تسقط الزخارف، وتذوب الدعاوى، ويعرف القلب وجهته الأصلية. في لحظة الخطر لا يحتاج الإنسان إلى درس طويل في التوحيد؛ فالضعف يكشف له الحقيقة التي غطتها العافية.

في البحر الهائج، وفي غرفة المرض، وعند خبر الخطر، تصمت الأصنام التي بناها الإنسان في أيام القوة. المال لا يجيب، والنفوذ لا يضمن، والمديح لا يشفي؛ فيخرج الدعاء من أعماق موضع في الروح: يا الله!

لكن المأساة أن بعض الناس إذا كُشف الضر عادوا إلى الغفلة: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

كان الله وحده ملجأهم في الشدة، فلما عاد الأمان وزعوا الشكر على غيره، أو نسبوا النجاة إلى الأسباب وحدها. كأنهم لم ييکوا بالأمس، ولم يَعِدُوا الله بالاستقامة إن أنجاهم.

إن المحنة قد تفتح القلب، لكن العافية تختبر صدق الفتح. كم من إنسان قرّبه المرض من الله، فلما شُفي عاد أبعد مما كان! وكم من مضطر وعد ربه، ثم نقض الوعد حين زال الاضطرار!

ليس الشأن أن تعرف الله حين تغلق الدنيا أبوابها؛ بل أن تبقى وقيًا له حين تفتحها لك من جديد.

﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ليست إباحة مطمئنة، بل تهديد يحمل في طياته قصر المهلة. تمتعوا قليلًا، فالمتاع الذي ينفصل عن الشكر يتحول إلى حجة على صاحبه. وما أقصر لذة تنتهي بعلم موجه لا ينفع بعده الندم.

الفصل الخامس والعشرون

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا: حِينَ تُهْدَرُ النِّعْمَةُ عَلَى أَعْتَابِ
الْوَهْمِ

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا
كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

من قبح الشرك أن الله يرزق، ثم يجعل الإنسان من رزق الله نصيباً لمعبود باطل. تأتيه النعمة من السماء، فيضعها على عتبة الوهم. يأخذ من عطاء الخالق ليقدمه لمن لم يخلق ولم يرزق.

وليس هذا مشهداً تاريخياً انقضى؛ فقد تتغير صور إهدار النعم وتبقى حقيقته. كل نعمة تُصرف في خدمة باطل، أو تلميع ظلم، أو نشر فساد، هي رزق من الله وُضع في غير موضعه.

المال نعمة، فإن صار أجراً لمنافق يزيّف الوعي فقد جُعل للباطل نصيباً منه. والكلمة نعمة، فإن تحولت إلى ستار يغطي جريمة فقد أهدرت على عتبة الطغيان. والعقل نعمة، فإن استعمل في اختراع الأعذار للظالم بدل كشف ظلمه فقد خان غايته.

﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ﴾.

كل نعمة وراءها سؤال. ليس السؤال عن مقدار ما ملكت، بل عما صنعت بما ملكت. قد يُعطى إنسان مالا قليلاً فيؤدي حقه، ويُعطى آخر مالا كثيراً فيصير اتساع رزقه اتساعاً في مسؤوليته.

سُئِلَ عَنْ أَعْمَارِنَا الَّتِي كَانَتْ رَأْسَ مَالِنَا، وَعَنْ كَلِمَاتِنَا الَّتِي
غَيَّرَتْ نَفُوسَنَا، وَعَنْ مَوَاقِعِنَا الَّتِي كَانَ يُمْكِنُ أَنْ نَقِيمَ بِهَا حَقًّا، وَعَنْ
صَمْتِنَا حِينَ كَانَ الْكَلَامُ أَمَانَةً.

إِنَّ النِّعْمَةَ الَّتِي لَا تُرَى أَمَانَةٌ تَتَحَوَّلُ سَرِيعًا إِلَى أَدَاةٍ عَبَثٍ.

الفصل السادس والعشرون

وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ: الْمِيزَانُ الْمَخْتَلُّ فِي نَظَرَةِ الْجَاهِلِيَّةِ

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

تكشف الآيات تناقضًا أخلاقيًا وعقديًا بالغ القبح: كانوا ينسبون إلى الله البنات، تعالى الله عن قولهم، بينما يكرهونهن لأنفسهم. يجعلون لله ما يستكفون منه، ويختارون لأنفسهم ما يشتهون.

﴿سُبْحَانَهُ﴾؛ تنزيهه لله عن الولد مطلقًا، وعن هذا الافتراء خاصة. فهو الواحد الأحد، الغني عن خلقه، ليس كمثله شيء.

ثم يرسم القرآن المشهد النفسي للرجل الذي بُشِّرَ بالأنثى: يسود وجهه، ويمتلئ غيظًا وحزنًا، ويهرب من الناس خجلًا من نعمة ساقها الله إليه.

يا لقسوة الميزان حين تصبح البشرى في نظر الإنسان مصيبة!

الطفلة لم تأت تحمل عارًا؛ وإنما استقبلها مجتمع مريض أسقط عليها أوهامه. كانت روحًا بريئة وهبة من الله، لكن الأب نظر إليها من خلال عيون القبيلة، فرأى في وجودها نقصًا في مكانته.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾.

لم يكن يخجل من ظلم نفسه، بل يخجل من عطية ربه. وهكذا تفعل المعايير الاجتماعية حين تنفصل عن الوحي: تقلب القيم، فيستحي الإنسان مما لا عيب فيه، ويفخر بما ينبغي أن يستحي منه.

وما أكثر الذين يعيشون أسرى لنظرة الجماعة! يفرحون بما تفرح به ولو كان تافهاً، ويحزنون مما تستنكره ولو كان حقاً. تصبح أعين الناس مرآتهم الوحيدة، فلا يرون النعمة إلا إذا صفق لها المجتمع.

ثم يعرض القرآن حيرته القاسية: ﴿أَيُّمُسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ؟﴾ أيبقي الطفلة وهو يذيقها الهوان، أم يقتلها ويدفنها حية؟

وفي الخيارين ظلم: ظلم الحياة المهينة، وظلم الموت المدفون. فجاء الحكم الإلهي: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

إن القرآن لم يكتف بإنقاذ جسد الأنثى من التراب، بل أنقذ قيمتها من الاحتقار. فالوادة قد يكون حفرة، وقد يكون معاملة؛ قد تُترك الفتاة حية، لكن تُدفن مواهبها، ويُحاصر عقلها، وتُشعر طوال عمرها بأنها عبء.

وكل مجتمع يحتقر إنساناً بسبب أمر لم يختره، كجنسه أو لونه أو نسبه، يعيد إنتاج شيء من منطق الجاهلية.

سُورَةُ النَّحْلِ

إن الله لا يزن الناس بالأجساد والأنساب، بل بالإيمان والتقوى والعمل. والكرامة التي وهبها الله للإنسان لا يجوز لعُرف جاهل أن ينتزعها.

الفصل السَّابِعُ وَالْعِشْرُونَ

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

حين تغيب الآخرة يختل ميزان الإنسان. تصبح الدنيا هي السقف الأخير، والمصلحة العاجلة هي المعيار، والقوة هي التي تمنح الأشياء أسماءها.

الذي لا يؤمن بأنه سيقف بين يدي الله يمكنه أن يخفي جريمته في ملف مغلق ثم يعيش مرفوع الرأس؛ لأنه لا يرى وراء محكمة الأرض محكمة أخرى. أما المؤمن بالآخرة فيعلم أن المساحات التي غابت عنها أعين الناس ليست خارجة عن الرقابة الإلهية.

ولهذا كان للذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾؛ صفات النقص والقبح، وما ينشأ عن إنكارهم من فساد التصور والسلوك.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾؛ له سبحانه صفات الكمال المطلق التي لا يشبهه فيها خلقه. وكل كمال يليق بجلاله فهو ثابت له على الوجه الأعلى، من غير تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

عزیز لا یغلب، حکیم لا یضع شیئاً إلا موضعہ. اقترنت العزة بالحكمة حتى لا يتوهم متوهم أن القدرة المجردة هي الكمال؛ فكمال السلطان أن يكون ممتنعاً عن العجز، جارياً على الحكمة.

والإنسان قد يملك قوة بلا حكمة، فتتحول قوته إلى نقمة. أما قدرة الله فتجري بعلم مطلق وحكمة مطلقة وعدل لا يظلم مثقال ذرة.

الفصل الثَّامِنَ وَالْعِشْرُونَ

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ: الْعَالَمُ الَّذِي يَعِيشُ بِإِمْهَالِ اللَّهِ

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

لو نزل العقاب مع الخطيئة في لحظتها، لما بقي على الأرض من يدب عليها. نحن لا نعيش باستحقاقنا المجرد، بل نعيش في فسحة من الحلم الإلهي.

كم من كلمة تستوجب المؤاخذه قالها الإنسان ثم نام آمناً! وكم من عين نظرت إلى الحرام ثم بقي نورها! وكم من يد بطشت ثم ظلت قادرة على الحركة! ليس ذلك رضا عن الذنب، بل إمهال يفتح طريق الرجوع.

إن بين الخطيئة والعقوبة مساحة اسمها الرحمة. وفي هذه المساحة يمكن للإنسان أن يندم، ويستغفر، ويرد الحقوق، ويبدأ من جديد.

لكن الإنسان قد يسيء قراءة الرحمة، فيحسب تأخير العقوبة إلغاءً لها. يمضي في الظلم لأن السماء لم تعاجله، ويقول في نفسه: لو كان ما أفعله خطأ لأصابني شيء.

وهذا من أخطر خداع النفس؛ فالإمهال امتحان، لا وثيقة براءة. وقد يكون تأخر العقوبة فرصة أخيرة لا يعلم المرء متى ينتهي وقتها.

﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

كل مهلة محدودة، وكل أجل مكتوب. والإنسان لا يملك تأخير الساعة حين تجيء، ولا تقديمها إذا لم يحن وقتها.

كم نعيش كأن آجالنا قرار بأيدينا! نؤجل التوبة إلى مرحلة نتخيل أننا سنبلغها، ونقول: حين أفرغ، وحين أستقر، وحين أكبر. ولكن مَنْ ضمن أن النسخة المقبلة من العمر ستصل؟

إن الساعة التي بين يديك هي الجزء الوحيد من الزمن الذي تملك أن تعمل فيه. الأمس خرج من يدك، والغد لم يدخلها؛ والحاضر هو أمانتك.

فلا تجعل التوبة مشروعاَ مؤجلاً إلى أجل لا تعرفه.

الفصل التاسع والعشرون

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ: أَكْذُوبَةٌ الْحُسْنَى

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ﴾.

يجمع الانحراف بين إساءة الاعتقاد وحسن الظن الكاذب بالنفس. ينسبون إلى الله ما يكرهون، ثم يزعمون أن لهم العقوبة الحسنى!

وهذا مرض متكرر: أن يعيش الإنسان كما يشاء، ثم يمنح نفسه شهادة رضا من الله. يتصور أن انتسابه أو اسمه أو جماعته يكفي، وأن النجاة حق مكتسب لا علاقة له بالإيمان والعمل.

الرجاء الحق يدفع إلى الطاعة، أما الغرور فيمنح الإنسان أمناً وهو مقيم على الإساءة. من يرجو المغفرة يطرق بابها بالتوبة، ومن يغتر بها يجعل رحمة الله عذراً للاستمرار في الذنب.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾؛ كأن ألسنتهم لم تعد تنطق بالكذب عرضاً، بل صارت ترسمه وتنسجه وصفاً. واللسان حين يعتاد التزييف لا يكفي بخداع الآخرين، بل يخدع صاحبه حتى يصدق الرواية التي صنعها.

يكرر المرء أنه محق حتى ينسى أن يفتش في نفسه، ويحيط نفسه بمن يمدحه حتى تتحول المرأة إلى جدار لا يعكس عيوبه.

لكن الأحكام لا تُكتب بما تصفه الألسنة، بل بما يعلمه الله.
والآخرة ليست المساحة التي تتحقق فيها أمانى النفس، بل التي
تظهر فيها حقائق العمل.

الفصل الثلاثون

تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ: حِينَ يُزَيِّنُ الشَّيْطَانُ الْقُبْحَ

﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

لم يأتهم الضلال مكشوف الوجه؛ فقد ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

هذه أخطر وظائف الشيطان: ألا يقول للإنسان إن القبح قبيح ثم يطلب منه فعله، بل يعيد تسمية القبح حتى يبدو جميلاً. يسمي الجبن حكمة، والنفاق مرونة، والبخل تدبيراً، والحسد نقداً، والعدوان دفاعاً عن الكرامة.

الإنسان في كثير من الأحيان لا يحتمل أن يرى نفسه شريراً، لذلك يحتاج إلى قصة أخلاقية مزيفة تبرر شره. والشيطان بارع في تأليف هذه القصص.

قد يظلم الرجل أخاه ثم يقتنع نفسه بأنه يؤدبه، ويطعن الحاسد في ناجح ثم يقول إنه يكشف الحقيقة، ويبيع صاحب المبدأ ضميره ثم يسمى ذلك مراعاة للواقع.

المشكلة ليست في ارتكاب الخطأ وحده؛ فصاحب الخطأ قد يندم. المشكلة في تزيينه، لأن من رأى القبيح جميلاً لن يطلب الشفاء منه، بل سيدافع عنه.

ولهذا يحتاج المؤمن إلى محاسبة لا تجامل النفس. أن يسأل: هل هذا حق فعلاً، أم أن رغبتى ألبسته ثوب الحق؟ هل أغضب الله، أم لذاتي ثم استعرت اسم الله لغضبي؟

إن النفس إذا تولت وحدها تفسير أفعالها برأت نفسها في كل قضية. فلا بد لها من ميزان خارج عنها: وحي يزنها، وضمير حي يراجعها، وناصر صادق لا يخشى غضبها.

ومن اتخذ الشيطان ولياً بالتلقي عن تزيينه، قاده في النهاية إلى عذاب أليم؛ لأنه وعده باللذة وأخفى عنه الفاتورة.

الفصل الحادي والثلاثون

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

في وسط الضجيج البشري، ينزل الكتاب ليبين.

فالناس لا يختلفون بسبب نقص المعلومات فقط، بل بسبب الأهواء والمصالح وتفاوت الموازين. قد تقع الحقيقة أمامهم واضحة، لكن كل فريق يسحبها إلى جهته. فجاء الوحي مرجعاً أعلى لا يتشكل بحسب رغبات البشر.

﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾؛ فالقرآن لا يضيف صوتاً إلى أصوات الخصومة، بل يأتي بالميزان الذي تُعرض عليه الأصوات.

لكن الكتاب لا ينتفع به من جاء إليه طالباً تصديق هواه، بل من جاء مستعداً لأن يصح نفسه على ضوئه. إن بعض الناس لا يسألون: ماذا يريد الله مني؟ وإنما يسألون: أي آية أستطيع أن أستعملها لتأييد ما قررت مسبقاً؟

وهنا ينقلب التعامل مع الوحي من اهتداء به إلى توظيف له.

القرآن ﴿هُدًى﴾؛ لأنه يدل على الطريق، و﴿رَحْمَةً﴾؛ لأن الطريق الذي يدل عليه ينقذ الإنسان من عبودية الهوى، ومن حيرة الوجود، ومن سوء المصير.

ولم يقل: هدى ورحمة لكل من حمل مصحفًا، بل ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. فالإيمان هو الاستعداد الداخلي لتلقي النور. الشمس تشرق على النوافذ كلها، لكن النافذة المغلقة لا يدخلها الضوء.

ومن رحمة القرآن أنه لا يكتفي بإخبارك أين النجاة، بل يبني فيك الإنسان القادر على سلوكها. يربي الصبر، ويوقظ الضمير، ويعيد ترتيب المحبة والخوف، حتى تصبح الهداية خلقًا يمشي على الأرض.

الفصل الثَّانِي والثَّلَاثُونَ

فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا: الْقُلُوبُ الَّتِي تَنْتَظِرُ مَطَرَهَا

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

تعود صورة الماء، لكنها تأتي هنا بعد الحديث عن الكتاب. وما ألطف هذا التجاور: ماء ينزل من السماء فيحيي الأرض، ووحى ينزل من السماء فيحيي القلوب.

الأرض الميتة لا تحتاج إلى من يوبخها على موتها، بل إلى ماء. وكذلك القلب حين يجف؛ لا تحييه القسوة المجردة، بل كلمة حق تحمل معها رحمة السماء.

قد يبدو القلب قاسياً لا نبات فيه، لكن لا تيأس منه؛ فالأرض التي تراها اليوم غباراً قد تصبح بعد المطر روضة. وكم من إنسان عاش سنين بعيداً، ثم وقعت في روحه آية في لحظة صدق، فإذا بما مات فيه يستيقظ.

القلوب لا تموت موتاً نهائياً ما دامت الأرواح في الأجساد. وفي باب الله مطر يكفي لإحياء صحراء كاملة.

لكن الآية ختمت بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

ليس كل سماع وصولاً. قد تعبر الكلمات الأذن ولا تبلغ القلب.
السماع الحقيقي أن تمنح الكلمة فرصة أن تغيرك، وأن تصغي
لا لترد، بل لتفهم.

كم من إنسان يحضر مجالس الحكمة وهو منشغل بصناعة جوابه!
يسمع بظاهر أذنه، بينما أبواب داخله مغلقة. وكم من آية تكررت
عليه حتى حجبها الاعتیاد، فلم يعد يسمعها كأنها تخاطبه لأول
مرة.

إن القرآن لا يحتاج دائماً إلى صوت أعلى، بل إلى قلب أشد
إنصاتاً.

وإذا أردت أن تعرف هل سمعت الوحي حقاً، فلا تسأل كم آية
حفظت، بل اسأل: أي شيء تغیر فيك بسبب ما سمعت؟ فالسماع
الذي لا يترك أثراً يشبه مطراً مرّ فوق سطح أملس ثم انحدر
دون أن يسقي شيئاً.

الفصل الثالث والثلاثون

مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ: النِّعْمَةُ النَّقِيَّةُ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْأَذَى

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.

ليست الأنعام في سورة النحل مجرد مخلوقات تقدم للإنسان منفعة؛ إنها معلمة صامتة، وفي داخل أجسادها درس عظيم: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾.

والعبرة من العبور؛ أن تعبر بعقلك من المشهد إلى معناه، ومن اللبن إلى القدرة التي أخرجته، ومن النعمة إلى المنعم. فكثيرون يشربون، وقليلون يعبرون.

﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾.

إنه مشهد يضع النقاء إلى جوار ما تستقذره النفس، ويكشف كيف تستخرج القدرة الإلهية الطيب من بين مجاري الأذى. يخرج اللبن أبيض نقيًا، لا يحمل لون الدم ولا رائحة الفرث، سهلًا لذيذًا ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾.

ما الذي فصل بين هذه المواد داخل ظلمة البطن؟ ومن أقام هذا المصنع الدقيق في جسد بهيمة لا تعرف شيئًا عن الكيمياء التي تجري فيها؟ من أعطى كل خلية وظيفتها، وأجرى الغذاء في مساراته، وأخرج للإنسان شرابًا نقيًا؟

إن الإنسان يرى الكأس أمامه، لكن القرآن يدعوهُ إلى أن يرى الرحلة الخفية التي سبقتها. فكل نعمة ظاهرة تستند إلى عوالم من التدبير لا تقع عليها العين.

وفي الآية هداية تطمئن القلب: إن الله القادر على إخراج اللبن الخالص من بين الفرث والدم قادر على أن يخرج من قلب الشدة فرجاً نقيًا، ومن بين الفتن إنسانًا ثابتًا، ومن داخل التجربة المؤلمة حكمة لا تشبه مرارة الطريق الذي خرجت منه.

ليس كل ما أحاط به الأذى يصبح أذى. فقد يعيش الطيب وسط بيئة فاسدة ولا يحمل لونها، كما يخرج اللبن نقيًا من بين ما حوله.

والعبرة هنا أخلاقية أيضًا: الطاهر ليس من لم يمر بالقبح، بل من مر به ولم يتلوث. قد تحيط بالإنسان أجواء من الكذب، لكنه يبقى صادقًا؛ ويعمل بين خائنين، لكنه يحفظ أمانته؛ ويبتلى بمجتمع يحتقر الرحمة، لكنه لا يسمح للقسوة أن تصوغ قلبه.

إن النقاء الحقيقي لا يعني غياب الامتحان، بل الانتصار عليه.

الفصل الرابع والثلاثون

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ: الْعَطِيَّةُ وَاخْتِبَارُ الْإِسْتِعْمَالِ

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الثمرة واحدة في أصلها، لكن يد الإنسان قد تصنع منها ما يضر، وقد تنتفع بها رزقًا حسنًا. وهنا تلوح مسؤولية الاختيار: ليست كل إمكانية مباحة لمجرد أن الإنسان يقدر عليها، ولا كل ما يمكن إنتاجه يليق أن ينتج.

لقد منح الله العقل والمواد والقدرة، ثم ترك له مساحة الابتلاء: ماذا يصنع بالعطية؟

إن الأدوات لا تحمل أخلاقها في ذاتها دائمًا؛ الأخلاق تأتي من الغاية التي توجهها. الكلمة قد تكون ذكرًا أو كذبًا، والمال قد يكون صدقة أو رشوة، والعلم قد يكون شفاء أو سلاحًا، والسلطة قد تكون عدلًا أو استبدادًا.

النعمة لا تضمن حسن الاستعمال، بل تجعل حسن الاستعمال واجبًا.

وقد وردت هذه الآية قبل التحريم القاطع للخمر، فكانت تمييزًا لافتًا بين السكر و﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾، حتى تمضي التربية الإلهية بالنفوس نحو الحكم التام. إن الوحي لا يخاطب السلوك منفصلًا

عن بناء الوعي؛ بل يوقظ الحس الأخلاقي حتى يرى الإنسان الفرق بين ما يغيب عقله وما يغذي حياته.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

العقل ليس أن تعرف كيف تحول المادة إلى منتج فقط، بل أن تسأل: هل ينبغي أن أفعل؟ فالمعرفة تمنح القدرة، لكن الحكمة تضبط اتجاهها.

وقد بلغت البشرية قدرة هائلة على صنع الأشياء، لكن سؤاها الأخلاقي لم ينضج دائماً بقدر نضج أدواتها. تستطيع أن تفعل أشياء كثيرة، غير أن القدرة وحدها ليست إدناً أخلاقياً.

إن العقل الذي يبتكره الإنسان ليزيد الحياة خيراً هو نعمة، أما العقل حين يتحول إلى خادم للشهوة والطغيان فيصبح ذكاءً بلا هداية؛ وقد يكون الذكاء المنفصل عن الضمير أشد خطراً من الجهل.

الفصل الخامس والثلاثون

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ: حِينَ يُصْبِحُ الْمَخْلُوقُ الصَّغِيرُ مُعَلِّمًا
لِلْإِنْسَانِ

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ
وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ
ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

هنا تبلغ السورة الاسم الذي عُرفت به، وتقف أمام مخلوق بالغ
الصغر، لكنه يحمل في نظام حياته معنى السورة كلها: وحي،
وهداية، وعمل، وثمره، وشفاء.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾.

إنه وحي إلهام وهداية فطرية، أودع الله بها في هذا المخلوق
الصغير نظام حياته. لم تدخل النحلة مدرسة لتتعلم هندسة البيوت،
ولم تحمل خريطة للطرق، ولم تتلق درسًا في تركيب العسل؛
ومع ذلك تؤدي وظائفها بدقة تدهش العقول.

من دلّها إلى الزهرة البعيدة، ثم ردها إلى بيتها؟ ومن علّمها أن
تبني خلاياها بذلك النظام؟ ومن جعل من حركتها الفردية جزءًا
من عمل جماعي بالغ الإحكام؟

إن المعرفة ليست كلها محفوظة في الكتب؛ هناك معرفة أودعها الخالق في غرائز مخلوقاته، لتشهد بأن العقل المدبر وراءها واحد.

﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

من الجبال إلى الشجر إلى ما بينيه الإنسان؛ تتنوع البيئات، وتظل النحلة قادرة على اتخاذ البيت. وكأن في ذلك تعليمًا أن صاحب الرسالة لا يعجزه اختلاف المكان عن أداء وظيفته. قد تتبدل الظروف، لكن القلب المهتدي يجد في كل بيئة موضعًا للعمل.

ثم يأتي الأمر: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

تأخذ النحلة من طيبات الأرض، لكنها لا تستهلك ما تأخذ استهلاكًا عقيمًا؛ تعيده إلى العالم عسلًا وشفاء. وهذا هو الفرق بين كائن يمر بالحياة وكائن يضيف إليها.

الإنسان أيضًا يأكل من ثمرات كثيرة: من ثمرات الأرض، وثمرات العقول، وثمرات التجارب، وثمرات الكتب. لكن السؤال: ماذا يخرج منك بعد كل ما دخل إليك؟

قد يقرأ إنسان كثيرًا، ثم لا يخرج من لسانه إلا التكبر والجدل. وقد يتلقى آخر معرفة قليلة، فتمتزج بإخلاصه وتخرج حكمة وطمانينة ونفعًا.

ليست قيمة المرء في حجم ما جمع، بل في طبيعة ما أعاد إلى الناس.

﴿فَاسْأَلْكَ سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾.

أضيفت السبل إلى الرب؛ فهو الذي رسمها ويسرها وهداها إليها. تمضي النحلة في طريقها منقادة للهدى الذي أودعه الله فيها، فلا تتكبر على وظيفتها، ولا تضيع بين الأزهار عن رسالتها.

والإنسان أعطاه الله وحياً يُتلى، وعقلاً يتدبر، وفطرة تهديه إلى أصل الخير؛ فهل يسلك سبل ربه كما سلكت النحلة سبيلها؟

الطريق إلى الله لا يذل الإنسان للخلق، بل يجعله ذلولاً للحق. وأعظم الكرامة أن ينقاد القلب لمن خلقه؛ لأن رفض العبودية لله لا يجعل الإنسان حراً، وإنما يوزع عبوديته بين أهواء كثيرة.

ثم تأتي الثمرة:

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾.

كائن صغير يخرج منه شفاء لكائن أكبر منه. فلا تحتقرن أحداً لصغر حجمه أو قلة شأنه في عيون الناس؛ فقد يضع الله في الضعيف نفعاً لا يوجد عند القوي، وفي المغمور دواء لا يحمله المشهور.

قيمة المخلوق بما أودع الله فيه من خير، لا بما يشغل من مساحة.

والعسل مختلف الألوان، لكن الاختلاف لم يمنع وحدة النفع. وهكذا يمكن للتنوع أن يكون ثراءً لا صراعاً، إذا اجتمعت المختلفات على غاية طيبة.

وفي الآية شفاء، لكنها قالت: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ﴾، ولم تجعل العسل شفاءً لكل داء على كل حال؛ فالأسباب تُستعمل بقدرها، والشفاء بيد الله. لا يعلّق المؤمن قلبه بالمادة، وإن انتفع بها، بل برب الأسباب الذي أودع فيها منافعها.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

إن النحلة نفسها آية، وبيتها آية، وطريقها آية، وعسلها آية. لكن التفكير هو الذي يجمع هذه الحروف فيقرأ منها اسم الخالق.

وإذا كانت النحلة قد أخذت من كل زهرة خيرها ثم أخرجت للناس شفاء، فليكن المؤمن كذلك: يمر بالحياة ملتحقاً بالحكمة، لا متتبّعاً للعورات؛ ويأخذ من الناس أجمل ما عندهم، ثم يخرج لهم كلمة تداوي، لا سمّاً يجرح.

ما أجمل أن يكون الإنسان نحلةً في عالم امتلأ بالذباب: يطلب مواضع الطيب، ويصنع من رحيقها نفعاً، ولا يقع على القاذورات ليشيعها بين الناس.

الفصل السادس والثلاثون

وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ: الْقُوَّةُ الَّتِي تَعُودُ ضَعْفًا

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْنًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

بين كلمتي ﴿خَلَقَكُمْ﴾ و﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ تجري القصة التي نسميها العمر. أعوام تبدو طويلة ونحن في أولها، ثم تنكمش في الذاكرة حتى تصبح كأنها أيام.

والله هو الذي بدأ الخلق، وهو الذي يقبض الروح. لا يملك الإنسان أول صفحته ولا آخرها، وإنما أُعطي مساحة بينهما ليكتب فيها عمله.

ومن الناس من يمتد به العمر حتى يعود بعد قوته إلى الضعف، وبعد علمه إلى النسيان. كان يقود غيره، فإذا به يحتاج إلى من يقوده؛ وكان يعلم الأسماء، فإذا به ينساها؛ وكان يحمل أبناءه، فإذا بأبنائه يحملونه.

إن الشيخوخة تعيد الإنسان إلى شيء من ضعف بدايته؛ ليعلم أن القوة مرحلة عابرة وليست ذاتًا ثابتة. الجسد الذي يغتر به اليوم يحمل في داخله بذور ضعفه المقبل، والعقل الذي يفاخر بحدته قد يأتي عليه يوم لا يستبقي معلومة.

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْنًا﴾.

ما أقسى أن تتراجع الذاكرة التي حفظت عمرًا كاملاً، لكن الآية تعلمنا الرحمة بمن بلغ هذه المرحلة. فليس تكرار الشيخ حديثه عبثاً متعمداً، ولا بطء فهمه نقصاً يبيح السخرية؛ إنه إنسان كان قوياً مثلك، ثم رده الله إلى الضعف كما قد يردك يوماً.

ومن الوفاء أن تتحمل ضعف من حملك في ضعفك، وأن تجيب بلطف عن السؤال الذي تكرر، كما كان يجيبك في طفولتك عن أسئلتك التي لا تنتهي.

وختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾؛ فعلم الإنسان يزول، وعلم الله لا يعتريه نسيان، وقدرة الإنسان تذبل، وقدرة الله لا يلحقها ضعف.

فلا تجعل ما هو عارض فيك أساس غرورك، وتعلق بمن لا تتغير صفاته ولا تزول نعمه.

الفصل السَّابِعِ وَالثَّلَاثُونَ

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ: الْإِخْتِلَافُ الَّذِي
يَخْتَبِرُ الْأَخْلَاقَ

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا
بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ
يَجْحَدُونَ﴾.

تفاوت الأرزاق حقيقة مشهودة، لكنه لا يعني تفاوت الكرامة عند
الله. قد يُعطى إنسان مالاً ويُعطى آخر حكمة، ويُفتح لهذا في
العلم، ولهذا في الصحة، ولهذا في القبول. ولا يحيط أحد بجميع
صور الرزق.

والتفاوت امتحان للطرفين: الغني يُختبر في الشكر والعطاء،
والفقير يُختبر في الصبر والعفة؛ والقوي يُختبر في إنصاف
الضعيف، وصاحب الحاجة يُختبر في ألا يبيع كرامته للخلق.

لكن الآية تقيم على المشركين حجة من واقعهم: إذا كانوا لا
يرضون أن يساويهم مملوكون فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون لله
شركاء من خلقه، وينسبون إليهم نصيباً من خصائص الألوهية؟

إنهم يرفضون المساواة لأنفسهم، ثم يفرضونها في تصورهم على
رب العالمين! وهذا تناقض تكشفه الآية بسؤال يهزمهم: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؟

وللآية ظل أخلاقي يوقظ ضمير المقتدر: ما في يدك لم ينبع من ذاتك، بل هو ﴿رَزَقَهُمْ﴾، أي رزق الله الذي أوصله إليهم. والملكية البشرية استخلاف محدود، لا استقلال مطلق.

حين يدرك الغني أن المال مال الله، يصبح البذل رداً لبعض الأمانة إلى موضعها، لا منّة يتعالى بها على المحتاج. وحين يرى قوته فضلاً من الله، لا يحتقر من حُرّمها؛ لأنه لم يصنع سبب تفضيله بنفسه.

المشكلة ليست في تفاوت العطاء، بل في أن يحول الإنسان العطاء إلى معيار للاحتقار. قد يرفع المال صاحبه في السوق، لكنه لا يرفعه في ميزان الله إلا بما صنع به من خير.

الفصل الثَّامِنِ وَالثَّلَاثُونَ

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً: الْبَيْتُ نِعْمَةٌ لَا تَرَى بِالْعَيْنِ
وَحَدَّهَا

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ
وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ
يَكْفُرُونَ﴾.

بعد نعمة الخلق والرزق، تقف السورة عند نعمة القرب الإنساني:
﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

من جنسكم وطبيعتكم البشرية؛ ليفهم أحدهما الآخر، ويجد كل
طرف في صاحبه سكناً وموانسة. فالإنسان لا يحتاج إلى الطعام
وحده، بل إلى قلب يألفه، ووجه يعود إليه من تعب العالم.

البيت ليس جدراناً، بل أمان عاطفي. وقد يكون الإنسان محاطاً
بالأثاث كله ولا يجد بيتاً؛ لأن البيت الحقيقي يُبنى بالمودة
والرحمة والثقة.

ثم تمتد النعمة إلى البنين والحفدة، فيتصل العمر بأعمار، وتتحول
الأسرة إلى نهر تتعاقب فيه الأجيال. يرى الإنسان شيئاً منه يمشي
بعده، لكنه يُسأل: أي معنى أورثه؟ فقد يورث المال ولا يورث
المبدأ، ويحرص على مستقبل أبنائه الدنيوي وينسى أن يبني فيهم
ما ينجيهم في الآخرة.

ليست الأبوة أن تنفق على الجسد فقط، بل أن تحرس الفطرة من التشوه، وتمنح الطفل معنى يعرف به ربه ونفسه وكرامته. ورب كلمة زرعها أب في قلب ابنه ظلت تحميه بعد أن غاب الأب تحت التراب.

ثم يضع القرآن هذا الدفء كله أمام مفارقة الجحود: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ؟﴾

يؤمنون بما لا دليل عليه، ويجحدون ما تغمرهم آثاره. يتعلقون بالوهم، ويغفلون عن النعمة التي تنام إلى جوارهم وتجلس حول مواعدهم.

وقد لا يعرف الإنسان قيمة الأسرة إلا حين يفقد واحدًا من أهلها، فيكتشف أن بعض النعم كانت تتكلم معه كل يوم، لكنه لم يكن يسمعها.

فاشكر وجوهاً تحبك قبل أن تتحول إلى صور، وقل الكلمة الطيبة قبل أن يصبح موضعها فارغاً. فإن بعض النعم لا تطلب منك مالاً؛ تطلب حضوراً ورفقاً ووفاء.

الفصل التاسع والثلاثون

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

بعد أن عدّدت السورة موارد الرزق، سألت الضمير عن الجهة التي تستحق العبادة. أيعبد الذي أنزل الماء، وأخرج اللبن، وألهم النحل، وخلق الأسرة، وسخر الليل والنهار؛ أم يُعبد من لا يملك رزقًا ولا يستطيع؟

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾؛ لم يكتف النص بنفي الملك، بل نفى القدرة نفسها. فالمعبودات الباطلة لا تملك الرزق ولا تقدر على خلقه.

ومن الغريب أن الإنسان قد يترك باب الغني المطلق، ويتنزل عند باب فقير مثله. ينسى أن الذي يرجوه يعيش هو الآخر على رزق الله، وأن صاحب النفوذ لا يملك أن يضمن لنفسه بقاء نفوذه إلى الغد.

هذا لا يعني ترك الأسباب أو الامتناع عن طلب الحق ممن يملكه؛ بل يعني ألا يتحول السبب في القلب إلى رب صغير. تطلب من الناس ما يقدرون عليه، وقلبك يعلم أن قدرتهم نفسها معلقة بإذن الله.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾؛ لا تشبهوه بخلقه، ولا تجعلوا له أندادًا، ولا تقيسوا صفاته على صفات المخلوقين. فكل صورة يصنعها الخيال محدودة، والله سبحانه أعظم من أن يحيط به تصور.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

هذه الجملة تهدم غرور العقل دون أن تلغي وظيفته. يعلم الإنسان، لكنه يعلم قليلاً. ويرى جانباً، وتغيب عنه جوانب. وكم من حكم أصدره ثم اكتشف بعد زمن أن ما غاب عنه كان أكثر مما حضر!

التواضع المعرفي ليس تعطيلاً للعقل، بل معرفة بحدوده. ومن عرف أن الله يعلم وهو لا يعلم، قدّم خبر الله على ظنه، وحكمته على استعجاله، ووحيه على تقلب هواه.

الفصل الأَرْبَعُونَ

عَبْدًا مَمْلُوكًا وَرَجُلًا يَرْزُقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

يضرب الله مثلاً يراه الناس في حياتهم: عبداً مملوكاً عاجزاً لا يملك التصرف، ورجلاً رزقه الله رزقاً حسناً، فهو يعطي منه سراً وجهراً. هل يستويان؟

إذا كان العقل يرفض التسوية بين عاجز ومقتدر في أحوال البشر، فكيف يسوي بين الخالق القادر الرازق وبين معبود عاجز لا يملك شيئاً؟

المثل يقود الذهن من المعلوم المشاهد إلى الحقيقة التي جدها. وهو من رحمة البيان الإلهي؛ إذ يقرب المعنى الكبير بصورة يستطيع العقل أن يمسك بها.

لكن في الطرف الثاني من المثل ملمح جميل: ﴿فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾. لم يجعل الرزق الحسن خزانة مغلقة، بل مجرى يمر منه الخير إلى الناس.

المال الذي لا يتحرك نحو حاجة الآخرين قد يتكاثر عدداً ويقل بركةً. أما الرزق حين يمر عبر يد كريمة، فإنه يؤدي رسالته.

والإنفاق سرًّا يحمي الإخلاص ويصون المحتاج، والإنفاق جهراً
قد يفتح باب الاقتداء ويعلن قيمة التكافل؛ ولكل مقام حكمته. المهم
ألا يكون الفقير منصة لعرض فضيلة الغني، ولا تتحول الصدقة
إلى صورة تجرح كرامة من أخذها.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ لأن كل كمال في العطاء منه، وكل رزق ابتدأ به،
وكل قلب كريم هو ثمرة من توفيقه. فإذا مدحك الناس على خير
فعلته، فتذكر من منحك القدرة والنية والفرصة، ورد الحمد إلى
أصله.

الفصل الحادي والأربعون

أَبْكُمْ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ: الْعَدْلُ الَّذِي يَصْنَعُ قِيَمَةَ الْإِنْسَانِ

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

مرة أخرى يضع القرآن العجز في مقابل القدرة النافعة. أحد الرجلين لا يأتي بخير، والآخر يأمر بالعدل ويسير على صراط مستقيم. فهل يستويان؟

والمقصود إقامة الفرق بين المعبود الباطل العاجز وبين الله سبحانه الذي يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم فيما شرعه وقدره، وله الكمال المطلق.

وليس في المثل انتقاص ممن ابتلي في بدنه؛ فالذم متجه إلى صورة العجز الكامل عن النفع في سياق الموازنة، لا إلى أصحاب الإعاقات الذين قد يملكون من الإيمان والعلم والأثر ما يفوق كثيرًا من الأصحاء.

وتبرز في الجهة المقابلة صفتان: ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ و﴿هُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

فليس الفاضل من يتحدث عن العدل فقط، بل من يقيم نفسه عليه. قد يأمر المرء الناس بما يخالفه في خاصة أمره، فيصبح لسانه على طريق وجوارحه على طريق آخر.

إن قيمة الدعوة إلى العدل تأتي من صدق صاحبها في السير عليه. والعدل ليس كلمة سياسية أو قضائية فحسب؛ إنه ميزان يدخل البيت، والصدقة، والخصومة، والحكم على المخالف.

أن تعدل مع من تحب سهل نسبيًا، لكن حقيقة العدل تظهر مع من تكره. وأن تطلب الإنصاف لنفسك فطرة، لكن الشرف أن تمنحه لخصمك حين يكون الحق معه.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾؛ يمضي في الطريق الذي يدعو إليه، فلا تتناقض خطاه مع صوته. وهذه أعلى بلاغة أخلاقية: أن يصبح سلوكك شاهدًا لكلامك.

الفصل الثَّانِي وَالْأَرْبَعُونَ

وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ: الْمُسْتَقْبَلُ الَّذِي لَا يُعْجِزُ اللَّهَ

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وراء العالم المنظور غيب لا تنفذ إليه الأبصار. نرى الظواهر، ولا نرى جميع الأسباب التي تعمل خلفها؛ نعرف شيئاً من الحاضر، ويظل المستقبل مستوراً عنا. أما الله فله غيب السماوات والأرض، علماً وملكاً وتدبيراً.

الإنسان مخلوق يعيش خلف ستار اللحظة. لا يعلم ماذا يطرق بابه بعد ساعة، ولا أي لقاء سيغير مجرى حياته، ولا في أي أرض تنتهي رحلته. يضع الخطط الطويلة، وهو لا يملك ضمان الدقيقة المقبلة.

ليس هذا الجهل دعوة إلى تعطيل التخطيط، بل تطهير له من الغرور. خطط، لكن قل: إن شاء الله. خذ بالأسباب، لكن لا تتوهم أنك أمسكت المستقبل من عنقه. فبين إرادتك والنتيجة أقدار لا تحصيها.

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾.

القيامة التي يستبعتها الناس ليست أمام قدرة الله مشروعًا يحتاج إلى زمن أو إعداد. أمرها أسرع من الملح، بل أقرب. فالزمن مخلوق لله، وليس قيدًا على فعله.

ويحمل التشبيه معنى يوقظ القلب: إن التحول من عالم إلى عالم قد يقع في لحظة. بين الإنسان وبين انقطاع العمل نبضة لا تأتي بعدها أخرى، أو نفس يخرج ولا يعود. وما دامت النهاية يمكن أن تفاجئه بهذه السرعة، فلا يليق به أن يبني توبته على أمل طويل.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

تأتي القدرة هنا جوابًا عن كل استبعاد. ما تستبعده لأنك تقيسه بقوتك، لا يُستبعد إذا قيس بقدرة الله. وحين يرسخ هذا المعنى في القلب، تتوازن فيه الخشية والرجاء: يخشى أن تأتي الساعة بغتة، ويرجو الفرج ولو بدت أسبابه بعيدة.

الفصل الثالث وَالْأَرْبَعُونَ

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ: أَدَوَاتُ الْمَعْرِفَةِ وَأَمَانَةُ

الشُّكْرِ

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

يخرج الإنسان إلى الدنيا خالي اليدين من المعرفة: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

لا يعرف اسمه، ولا وجه أمه، ولا معنى الضوء، ولا كيف يرفع رأسه. ثم تبدأ رحلة التعلم: صوت يطرق السمع، وصورة تستقبلها العين، وتجربة يحفظها القلب والعقل. يتراكم القليل فوق القليل، حتى يقف ذلك الطفل الضعيف يومًا يتحدث عن الكون، ويكتب الكتب، ويصنع الآلات.

لكن القرآن يعيده إلى بدايته حتى لا يغتر بنهايته: كنت لا تعلم شيئًا.

كل عالم كان طفلًا لا يعرف كلمة، وكل بليغ بدأ بصوت مبهم، وكل قوي حُمِلَ يومًا على ذراعين. فمن أين للإنسان أن يتكبر بما ناله، وهو لم يصنع الأدوات التي نال بها؟

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾.

هذه ليست منافذ محايدة؛ إنها أمانات وأدوات معرفة. السمع يتلقى، والبصر يلاحظ، والفؤاد يعي ويفقه ويتدبر. وباجتماعها يتكون الوعي الذي يميز الإنسان.

غير أن الأداة قد تؤدي رسالتها أو تُخَانَ. فالأذن قد تسمع الحكمة أو تصغي إلى الباطل، والعين قد تقرأ آيات الكون أو تطارد المحرمات، والفؤاد قد يكون موضع بصيرة أو مخزنًا للحسد.

ثم يحدد القرآن الغاية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فالمعرفة ينبغي أن تنتهي إلى الشكر. وكل علم يزيد الإنسان غرورًا دون أن يزيده خشوعًا فقد انفصل عن غايته الأخلاقية. كلما اتسعت معرفتك، كان ينبغي أن يتسع إحساسك بما كنت تجهله، وبفضل من علمك.

والشكر لهذه الحواس أن تُستعمل فيما خُلقت له. ليس شكر البصر أن تقول: الحمد لله على البصر، ثم تجعل عينك جسرًا إلى الحرام. شكره أن تغضها عما لا يحل، وأن تفتحها على مواضع العبرة وحاجات الناس.

وإذا كان الله قد أخرجك لا تعلم شيئًا، فلا تحتقر من لا يعلم. علمه كما علمك الله، وامنحه فرصة النمو، ولا تجعل سبقك إليه في المعرفة سببًا لإذلاله.

المعلم الصادق لا يقف فوق المتعلم متكبرًا، بل يذكر أنه هو أيضًا
بدأ من الصفر.

الفصل الرابع وَالْأَرْبَعُونَ

الطَّيْرُ مُسَخَّرَاتٌ فِي جَوْ السَّمَاءِ: الْأَجْنَحَةُ الَّتِي يَحْمِلُهَا الْأَمْرُ

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

يرفع القرآن العين إلى طائر يمر في السماء. مشهد يتكرر حتى
فقدنا دهشته؛ جناحان رقيقان يحملان جسداً في فضاء واسع،
يرتفع ويهبط ويغير اتجاهه، ثم يبلغ مكاناً لم يضع فيه علامة
على الطريق.

نحن نصف حركة الطائر بقوانينها وأسبابها، وهذه المعرفة
تكشف شيئاً من روعة الصنعة؛ لكنها لا تستغني عن السؤال
الأكبر: من خلق الجناح والهواء والقانون والقدرة على التوازن؟
ومن جعل بين هذه العناصر توافقاً يسمح بالطيران؟

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ يمسكهن بما أودع في خلقهن وفي الهواء
من سنن، وكل السنن قائمة بأمره. فالإيمان لا ينفي السبب، بل
يرده إلى خالقه.

إن من أخطاء النظر أن يظن الإنسان أن اكتشاف القانون يلغي
الفاعل. القانون وصف لنظام العمل، لا خالق لنفسه. وأنت إذا
عرفت كيف تتحرك الساعة لم يبلغ ذلك صانعها، بل كشف دقة
صنعه.

والطائر نفسه درس في الثقة. ينطلق من غصنه وليس في الفضاء موضع صلب يضع عليه قدمه، لكنه يفتح جناحيه فيحمله ما سخره الله له.

قد تأتي لحظة في حياة الإنسان يترك فيها غصنًا اعتاده، ولا يرى أمامه أرضًا ثابتة. عندئذ يحتاج إلى جناحين: جناح السعي، وجناح التوكل. لا يكفي أن يتمنى الطيران دون أن يفتح جناحيه، ولا يكفي أن يعتمد على جناحيه وينسى من خلق الهواء.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

الإيمان لا يصنع الآية، لكنه يفتح العين عليها. المؤمن يرى في الطائر أكثر من حركة جميلة؛ يرى تدبيرًا ورحمة وإمساكًا. وكلما رأى شيئًا محمولًا بأمر الله، تذكر أن قلبه أيضًا لا يثبت إلا بتثبيت الله.

الفصل الخامس والأربعون

جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا: النِّعْمَةُ الَّتِي نَغْلِقُ عَلَيْهَا الْبَابَ

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾.

البيت من النعم التي لا نعرفها حقًا إلا حين نتشرد.

أن يكون لك باب تغلقه وراءك، وسقف يرد عنك الحر والبرد، وموضع تخلع فيه حذرك وتستريح؛ تلك رحمة عظيمة تتخفى في صورة مألوفة.

قال: ﴿سَكَنًا﴾، ولم يقل مأوى فقط. فالمأوى يحفظ الجسد، أما السكن فيهدئ الروح. قد يكون المكان فخماً ولا سكينة فيه؛ لأن الأصوات العالية والخصام والظلم أفرغته من معناه.

البيت لا يصبح سَكَنًا بمساحته، بل بما يسكن فيه من أمان. وقد تضيق جدرانه وتتسع فيه القلوب، وقد تتسع غرفه ويختنق أهله من القسوة.

إن من أعظم الخيانات أن يحول الإنسان البيت، الذي جعله الله سَكَنًا، إلى موضع خوف لأضعف من فيه. الزوج الذي يُرهب زوجته، والأب الذي يحطم أبناءه، لا يسيء إلى أفراد فحسب، بل يفسد وظيفة نعمة أرادها الله سَكَنًا.

ثم يذكر الله البيوت المحمولة المصنوعة من جلود الأنعام، تخف في السفر وتقام في الحضر. وفي ذلك مراعاة لحال الإنسان في ظعنه وإقامته؛ فنعمة الله تلازمه وهو ساكن وراحل.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأُوبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾.

كل جزء في هذه المخلوقات يحمل منفعة: جلودها بيوت، وأصوافها وأوبارها وأشعارها أثاث ومتاع. إنها وفرة في التسخير تكشف أن النعمة قد تكون محيطة بالإنسان من جهات لم ينتبه إليها.

لكن العبارة تنتهي بقيد رقيق وموقف: ﴿إِلَى حِينٍ﴾.

البيت إلى حين، والأثاث إلى حين، والمتاع إلى حين. كل شيء حولك يحمل تاريخ انتهاء، وإن لم يُكتب عليه. ستركه أو يتركك، وسيأتي يوم تصبح فيه ممتلكاتك في يد غيرك.

ليس المقصود أن تزهد في إعمار بيتك، بل ألا تجعل المتاع وطن قلبك الأخير. استعمله ولا تعبد، وتمتع به واشكر، لكن تذكر أنه رفيق مرحلة لا صاحب خلود.

كم يتخاصم الناس على أشياء كُتب عليها: إلى حين! وكم يقطعون الأرحام من أجل متاع سيخرج من أيديهم جميعاً!

الفصل السادس والأربعون

ظِلَالًا وَأَكْنَانًا وَسَرَائِيلَ: الرَّحْمَةُ الَّتِي تَقِيكُمْ مِمَّا خَلَقَ

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

ليس الخلق مجرد أشياء مستقلة، بل شبكة من المنافع المتبادلة. شيء يظل شيئاً، وجبل يأوي إليه إنسان، ومادة تتحول إلى ثوب، وثوب يصبح وقاية.

﴿جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾.

الشمس نعمة، والظل نعمة تحمي من زيادة أثرها. وفي الحياة تحتاج النعم أحياناً إلى ما يوازنها؛ فالقوة تحتاج إلى الرحمة، والغنى يحتاج إلى التواضع، والكلام يحتاج إلى الصمت، والعمل يحتاج إلى الراحة.

والتوازن نفسه نعمة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾؛ مواضع تستترون بها وتحتمون. الجبل الذي يبدو كتلة صلبة بعيدة عن اللين يحمل في شقوقه مأوى. وهكذا قد يخرج الله الحماية من قلب ما يبدو قاسياً.

﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾؛ الثياب ستر ووقاية، لا مجرد زينة. ثم ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾؛ ما يقي في القتال من الدروع ونحوها.

واللافت أن الآية ذكرت ما يقي الإنسان بأسه؛ أي بأس بعضه لبعض. لقد وهب الله البشر ما يحميهم حتى من شر يصنعه البشر أنفسهم. وفي هذا تذكير مؤلم بأن الإنسان قد يحول قوته إلى خطر يحتاج أخوه إلى درع يقيه منه.

لو استقام الإنسان على هداية الله، لخفَّ ما يحتاجه من أسوار ودروع وحراس. كثير من أدوات الحماية شهادة على اختلال الأخلاق؛ فنحن نقيم الأقفال لأن الأمانة ضعفت، ونبني السجون لأن العدوان وُجد، ونرتدي الدروع لأن الإنسان رفع السلاح في وجه الإنسان.

ثم يكشف القرآن غاية إتمام النعمة: ﴿الْعَلَّكُمْ تُسَلِّمُونَ﴾.

كل هذه النعم تقود إلى الإسلام؛ إلى أن تسلم وجهك لله طوعاً بعد أن رأيت أن حياتك كلها قائمة على عطائه. فالإسلام ليس تكليفاً مقطوعاً عن النعمة، بل هو الاستجابة الأخلاقية لها.

الذي أواك وسترك وأطعمك وحماك يستحق أن تسلم له قلبك. أما أن تنتفع بكل ما صنع ثم تتنمر على أمره، فذلك انفصال قبيح بين الاستفادة والوفاء.

الفصل السَّابِعُ وَالْأَرْبَعُونَ

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ: حِينَ تَرُدُّ النَّتَاجُ إِلَى اللَّهِ

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ○ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

بعد استعراض هذا الفيض من النعم، كان المتوقع أن تخضع القلوب كلها. لكن الإنسان قد يرى ولا يستجيب، ويعرف ثم ينكر.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾؛ أعرضوا بعد البيان، فلا تحمل نفسك ما ليس لك.
﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

تتكرر هذه الحقيقة لتضبط قلب الداعية: وضوح الرسالة مسؤوليته، أما استجابة القلوب فليست ملكه. ليس مطلوباً منه أن يلوي النص ليرضي الناس، ولا أن يكرهم على الحق، بل أن يبلغه صافياً واضحاً بالحكمة والصدق.

والبلاغ المبين لا يعني قسوة الأسلوب؛ فقد تكون الحقيقة صحيحة لكن طريقة عرضها تحجب جمالها. البيان أن يصل المعنى واضحاً، وأن يُرفع ما يحول بين الناس وبينه من سوء العبارة أو غموض المقصد.

ثم تصف الآية حال الجاحدين: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾.

الإنكار هنا ليس جهلاً محضاً؛ إنه معرفة وقع عليها الجحود. يرون أثر النعمة، وتعرف فطرتهم مصدرها، ثم ينسبونها إلى غير الله أو يستعملونها في معصيته.

وقد يكون إنكار النعمة بالفعل أشد من إنكارها باللسان. من يقول إن المال من الله، ثم يمنع حق الله فيه، فقد ناقض اعترافه. ومن يقر بأن العلم فضل من الله، ثم يتكبر به على الناس، فقد أنكره بسلوكه.

المعرفة التي لا تنتج وفاءً تظل حجة على صاحبها.

الفصل الثَّامِنِ وَالْأَرْبَعُونَ

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا: حِينَ يَنْتَهِي زَمَنُ الْإِعْتِدَارِ

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ○ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

في الدنيا يستطيع الإنسان أن يعيد صياغة قصته، وأن يحذف منها ما يدينه، وأن يقدم نفسه في صورة الضحية وهو الجاني. لكن يوم القيامة يوم الشهادة الكاملة.

﴿نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾؛ يشهد رسولها بأنه بلغها، فتسقط دعوى الجهل بعد قيام الحجة. وليس الرسل مجرد مبلغين في التاريخ، بل شهود على موقف أممهم من البلاغ.

ثم ﴿لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار الذي ينفعهم؛ فقد انتهى زمن العمل. ليست المشكلة أن باب الرحمة كان ضيقًا، بل أنهم أعرضوا عنه حتى أغلق الموت زمن الدخول.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ لا يُطلب منهم أن يزيلوا العتب بالرجوع، لأن الرجوع إنما تكون له قيمة حين يقع اختيارًا في دار التكليف.

في الدنيا يمكنك أن تمحو ذنبًا بدمعة توبة، وأن ترد حقًا، وأن تصلح ما أفسدت. أما هناك فالحقيقة تُرى، لكن اليد لا تستطيع العودة إلى الماضي.

ما أعظم قيمة الدقيقة التي يمكن أن تستغفر فيها الآن! إنها أثنى من أزمنة طويلة في الآخرة لا يملك الإنسان فيها أن يضيف إلى صحيفته حسنة واحدة.

وحيث يرى الظالمون العذاب لا يخفف عنهم ولا يُمهّلون. لقد أخذوا مهلة الدنيا كاملة، ومرّت بهم الإنذارات، لكنهم استهلكوا فرصة الإمهال في مزيد من الإعراض.

إن تأخير التوبة ليس بقاءً في مكانك؛ إنه استهلاك لرأس المال الوحيد الذي لا يعود: الزمن.

الفصل التاسع والأربعون

أَيْنَ شُرَكَائِي؟ الْعُبُودِيَّاتُ الَّتِي تَتَّبِعُونَ مِنْ عَابِدِيهَا

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

يبحث المشركون في ساحة الحساب عن تعلقوا بهم في الدنيا، ثم يشيرون إليهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا﴾.

كانهم يريدون توزيع المسؤولية، أو استدعاء من ظنوا أنهم يشفعون لهم. لكن الجواب يأتي من المعبودات الباطلة نفسها: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

كل علاقة قامت على الباطل تنتهي إلى التبرؤ. المتبوع يتبرأ من التابع، والقائد المضل يترك جنوده، والشيطان يتنصل ممن أطاعوه. كانوا في الدنيا كتلة واحدة ضد الحق، فإذا جاء الحساب صار كل واحد يحاول النجاة بنفسه.

إن الولاء الذي لا يقوم على الله ينقلب عند الشدة خصومة. قد تجمع الناس منفعة، فإذا انتهت تفرقوا، وقد يوحدتهم ظلم، فإذا حان دفع الثمن ألقى كل طرف المسؤولية على الآخر.

﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾؛ استسلموا حين لم يعد الاستسلام طاعة اختيارية، بل صار اعترافاً مفروضاً أمام سلطان الحقيقة.

كان المطلوب أن يسلموا في الدنيا بمحبتهم وإرادتهم، لكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذي تسلم فيه الخلائق كلها قهراً.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

ضاع الوهم في اللحظة التي احتاجوا إليه. وهذه طبيعة الافتراء: يمنح صاحبه عزاءً مؤقتاً، لكنه يتبخر عند اصطدامه بالحقبة. أما الحق فقد يكون شاقاً في البداية، لكنه يبقى حين تزول الزخارف.

الفصل الْخَمْسُونَ

زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ: وَزُرْ الَّذِينَ لَمْ يَضِلُّوا وَحَدِّثْهُمْ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾.

ليس من ضل وحده كمن ضل وجعل من نفسه حاجزًا على الطريق. هناك من يرفض الحق لنفسه، وهناك من يبني جدارًا ليمنع الآخرين من الوصول إليه، ويستخدم نفوذه أو ماله أو كلمته ليجعل الضلال منظمًا.

﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ قد يصدون بالقوة، وقد يصدون بالشبهة، وقد يشوهون صورة الحق حتى ينفر الناس منه، أو يضطهدون صاحبه حتى يصبح اتباعه مكلفًا.

ومن أخطر الصد أن يقدم الإنسان نموذجًا قبيحًا باسم الدين، فيرى الناس سوء خلقه فيحسبونه ثمرة التدين. من رفع شعار الحق ثم مارس الظلم تحته قد يصد الناس بسلوكه أكثر مما تصدهم خطبة صريحة ضد الإيمان.

ولهذا كانت مسؤولية المنتسب إلى الدين مضاعفة؛ فالناس لا يقرأون أفكاره وحدها، بل يقرأون معاملته. وقد تكون رحمتك بابًا يرون منه جمال الإسلام، أو تكون قسوتك حجابًا.

﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾؛ عذاب كفرهم، وعذاب إفسادهم وإضلالهم. فالشر الذي يتجاوز صاحبه تتجاوز تبعته صاحبه أيضًا.

وكل من يملك تأثيرًا يحمل مسؤولية بقدر اتساع أثره. الكلمة التي يسمعها واحد ليست كالكلمة التي يسمعها مليون، والقرار الذي يفسد حياة أمة ليس كالخطيئة المحصورة في صاحبها.

إن اتساع النفوذ ليس اتساعًا في الامتياز فقط؛ إنه اتساع في مساحة الحساب.

الفصل الحادي والخمسون

وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ: الْكِتَابُ الَّذِي يُبَيِّنُ الطَّرِيقَ

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

يعود مشهد الشهادة، لكنه يقترن هذه المرة بوظيفة الكتاب. فالرسول ﷺ يشهد على أمته بما بلّغ، والكتاب قائم بين الناس حجةً وهداية.

﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾؛ يعرفون صدقه ولسانه وسيرته، ولم يأتهم غريبًا عن إنسانيتهم. عاش الرسول ﷺ بينهم، ورأوا أمانته قبل النبوة، وشاهدوا الوحي وقد تحول في أخلاقه إلى حياة.

ثم قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾؛ أي تبيانًا لما تحتاج إليه الهداية والرسالة، بأصوله وقواعده ودلالاته، لا كتابًا لتفاصيل كل صناعة وتجربة دنيوية. فقد جاء القرآن ليهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والناس والكون، ويمنحه الميزان الذي يحكم به حركته في الحياة.

إنه يبين الأصل والغاية والقيمة، ويترك للعقل أن يعمل في عمران الأرض داخل ذلك النور. الوحي يمنح السفينة بوصلتها الأخلاقية، والعلم البشري يطور أدوات الإبحار؛ فإذا امتلك الإنسان المحرك وفقد البوصلة، أسرع إلى الضياع.

والكتاب ﴿هُدًى﴾؛ لأنه يدل، و﴿رَحْمَةً﴾؛ لأنه ينفذ، و﴿بُشْرَى﴾؛ لأنه لا يكتفي بتحذير الإنسان مما يخاف، بل يفتح أمامه ما يرجو.

وما أحوج الخطاب الديني أن يحفظ هذا التوازن القرآني: هداية تبين الطريق، ورحمة ترفق بالسائر، وبشرى تمنحه القدرة على مواصلة الرحلة. فالنفوس لا تحيا بالتخويف وحده؛ إنها تحتاج إلى نافذة ترى منها جمال الوصول.

﴿لِّلْمُسْلِمِينَ﴾؛ للذين سلّموا وجوههم لله، فلم يقفوا من الوحي موقف المتفرج، بل دخلوا تحت هدايته. وكلما ازداد العبد تسليماً لله، انفتح له من بشائر الكتاب بقدر صدقه.

الفصل الثَّانِي وَالْخَمْسُونَ

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ: آيَةٌ تَبْنِي عَالَمًا كَامِلًا

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

هذه الآية دستور أخلاقي مكثف، كأنها تجمع في كلمات قليلة ما تحتاج إليه المجتمعات لتستقيم: ثلاثة أوامر تبني، وثلاثة نواهٍ تحمي.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾.

العدل أن يوضع كل حق في موضعه، وأن يُعطى كل إنسان ما يستحق دون أن تميل الكفة لقرابة أو خصومة أو منفعة. إنه الحد الأدنى الذي لا تقوم الحياة بدونه.

والعدل ليس فضيلة تجميلية، بل عصب العمران. حين يغيب، يفقد الناس الثقة، وتتحول المؤسسات إلى أدوات غلبة، ويصبح القانون بابًا يعبر منه القوي ويعلق فيه الضعيف.

وليس الظلم أن تسلب مالا فقط؛ قد تظلم إنسانًا حين تشوه سمعته، أو تنسب جهده إلى غيره، أو تحكم عليه دون أن تسمعه، أو تكيل له بميزان لا تستعمله مع من تحب.

العدل الحقيقي يُختبر عند الخصومة. من أنصف صديقه لم يُختبر بعد، لكن من أنصف خصمه وهو قادر على ظلمه فقد تحرر من سلطان الهوى.

ثم يرتفع القرآن من العدل إلى ﴿الإِحْسَانِ﴾.

العدل أن تعطي الحق، والإحسان أن تزيد عليه فضلاً. العدل ألا تظلم، والإحسان أن تجبر. العدل يوقف الأذى، والإحسان يزرع الجمال.

لا يكفي لبناء مجتمع إنساني أن يمتنع أفرادُه عن الاعتداء؛ لا بد أن يحمل بعضهم بعضاً، وأن يحنو القوي على الضعيف، وأن تتحول العلاقة من تبادل جامد للحقوق إلى تراحم.

وقد يعجز القانون عن إلزامك بأن تواسي حزيناً أو تزور مريضاً أو تغفر زلة، لكن الإحسان يفتح في الأخلاق مساحات لا تصل إليها مواد القانون.

ثم خصَّ الله ﴿إِيتَاءَ ذِي الْقُرْبَى﴾، وهو داخل في الإحسان، ليؤكد أن الخير يبدأ من الدائرة الأقرب. فما أقبح أن يظهر الإنسان كريماً أمام الغرباء، بينما يذيق أهله الجفاء! وأن يحمل هموم العالم، لكنه لا يسأل عن قريب كسرت الحاجة قلبه!

القريبى ليست امتيازًا للعصبية، بل مسؤولية للرعاية. تعطي قريبك حقه، لكنك لا تنصره في الباطل؛ لأن العدل مقدم على محاباة الدم.

ثم تنهى الآية عن ثلاث قوى هادمة:

﴿الْفَحْشَاءُ﴾؛ كل ما بلغ الغاية في القبح، ولا سيما ما يفسد العفة والفطرة.

و﴿الْمُنْكَرِ﴾؛ ما أنكره الشرع والفطرة السليمة والعقل الصحيح.

و﴿الْبَغْيِ﴾؛ مجاوزة الحد والعدوان على الحقوق.

ومن اللافت ختم المنهيات بالبغي؛ لأن صاحب الفحشاء قد يفسد نفسه، أما الباغي فيمد فسادَه إلى غيره. والبغي قد يرتدي ثيابًا رسمية، ويتحدث بلغة القانون، ويرفع شعار المصلحة، لكنه يظل بغيًا ما دام يسلب الحقوق ويتجاوز الحدود.

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

إن الأمر والنهي موعظة ورحمة، لا قيود يراد بها تضيق الحياة. فالله يمنع عن الناس ما يهدمهم، ويأمرهم بما يبنّيهم. وكل مجتمع يطلب النهضة دون عدل وإحسان يشيد طوابقه فوق أرض متصدعة.

قد يتقدم في العمران المادي، لكنه يتآكل من الداخل؛ لأن الحضارة لا تقاس بارتفاع مبانيها فقط، بل بمقدار الأمان الذي يجده الضعيف في ظلها.

هذه الآية لا تريد فردًا صالحًا في زاويته وحده، بل تريد عالمًا يقوم على العدل، ويتزين بالإحسان، وتحرسه حدود تمنع الفحشاء والمنكر والبغي. إنها تنقل الإيمان من خلوة القلب إلى هندسة المجتمع.

الفصل الثالث والخمسون

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ: الْكَلِمَةُ الَّتِي يَقِفُ عَلَيْهَا الْعَالَمُ

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

بعد أن أقامت الآية السابقة ميزان المجتمع على العدل والإحسان، جاءت هذه الآية لتحرس الثقة؛ فالعالم لا يقوم بالموارد وحدها، بل بالكلمات التي يطمئن الناس إلى صدقها.

العهد جسر بين قلبين، فإذا نُقض انهار شيء يتجاوز حروف الاتفاق. تنهار الثقة، ويبدأ كل إنسان في النظر إلى الآخر بعين الريبة، وتتحول الحياة إلى حراسة دائمة من الخيانة.

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾.

كل عهد مشروع يعقده الإنسان مستشهداً بالله هو عهد الله من جهة وجوب الوفاء به. فالطرف الآخر قد يغيب، وقد يضعف، وقد يعجز عن مطالبتك، لكن الله لا يغيب.

وهنا ترتفع الأخلاق من رقابة القانون إلى رقابة الإيمان. قد يجد المرء ثغرة تنجيه من المساءلة، لكنه لا يجد ثغرة في علم الله. وقد يستطيع أن يتلاعب بالنصوص، لكنه لا يستطيع أن يبدل حقيقة نيته.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

يا له من معنى مهيب! حين تؤكد عهدك باسم الله، فأنت تستدعي أعظم شاهد على صدقك، فلا تجعل اسم الله ستارًا لخداعك. إن خيانة العهد ليست إساءة إلى الطرف الآخر فقط، بل جراءة على مقام الله الذي جعلته كفيلاً.

والوفاء لا يُختبر حين يبقى العهد مربحاً، بل حين تصبح الخيانة أنفع في حساب المصلحة العاجلة. هناك يظهر: أتعبد الله أم تعبد منفعتك؟

كم من إنسان حافظ على وعوده ما دامت تخدمه، فلما تغيرت الظروف اكتشف لنفسه تأويلات تبيح له النقض! والحقيقة أن بعض الناس لا يعاهدون، بل يؤجلون خيانتهم إلى أن تنتهي حاجتهم إلى الطرف الآخر.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

قد يقبل الناس تفسيرك، والله يعلم ما وراءه. وقد تظهر في صورة المضطر، وهو يعلم أنك دبّرت النقض منذ البداية. وهذه الرقابة الباطنة هي التي تمنح الوفاء صلابته حين تضعف رقابة البشر.

الفصل الرابع والخمسون

كَأَلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا: الْعُمْرُ الَّذِي يَهْدِمُهُ صَاحِبُهُ بِيَدَيْهِ

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ
أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ
بِهِ وَلِيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

ترسم الآية صورة امرأة تغزل خيطها حتى يقوى ويستحكم، ثم تعود فتنتفضه خيطاً خيطاً. جهد طويل ينتهي إلى العدم بيد صاحبه.

هكذا ناقض العهد: لا يعود إلى نقطة البداية فحسب، بل يهدم قيمة الزمن والجهد والثقة التي بُنيت. وكم من علاقة نمت أعواماً ثم هدمتها خيانة لحظة! وكم من سمعة شيدها صاحبها طويلاً ثم نقضها بموقف واحد كشف ما كان مستوراً!

﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾؛ وهنا شدة الحسرة. لو لم يُغزل الخيط لما كان الفقد بذلك الألم، لكن أن يبلغ البناء قوته ثم يهدمه صاحبه، فهذا عبث بالنعمة والعمل معاً.

والآية لا تتحدث عن نقض العهود بدافع عابر فقط، بل تكشف الدافع السياسي والمصلحي: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي لأن جماعة أكثر عدداً أو قوة أو نفعا من جماعة أخرى، فينقضون عهد الأولى طمعاً في الثانية.

إنها أخلاق المنفعة حين تنفصل عن المبدأ: يبقى الوفاء ما دام الطرف الآخر قويًا، فإذا ظهر أقوى منه انتقل الولاء إليه. يتحول العهد إلى سلعة، والصدقة إلى استثمار، والموقف إلى مزاد.

لكن الأخلاق التي تتغير بتغير موازين القوة ليست أخلاقًا؛ إنها حسابات مصلحة ترتدي ثوب الفضيلة.

﴿إِنَّمَا يَبْهَتُهُمُ اللَّهُ بِهِ﴾.

التفاوت في القوة امتحان. هل تغريك قوة الأكثر بأن تخون الأضعف؟ هل ترى الكثرة دليلًا على الحق؟ هل تجعل المصالح المتاحة سببًا للتراجع عن التزاماتك؟

قد يضعك الله أمام فرصة تربح بها شيئًا إذا خنت مبدأك؛ والربح الظاهر هو مادة الامتحان. فما كان للفتنة أن تكون فتنة لو جاءت بلا إغراء.

ثم يؤجل البيان الكامل إلى يوم القيامة: ﴿وَلْيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ... مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. فكم من ناقض قدّم خيانتَه في الدنيا على أنها حكمة، وكم من وفيّ وُصف بالسذاجة لأنه رفض بيع عهده! هناك تُكشف الأسماء الحقيقية، ويظهر من كان حكيماً ومن كان خائناً.

الفصل الخامس والخمسون

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً: الْاِخْتِيَارُ الَّذِي تَقُومُ عَلَيْهِ
الْمَسْئُولِيَّةُ

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

لو شاء الله لجعل البشر على حال واحدة لا يملكون معها مخالفة، لكنه خلقهم في دار ابتلاء، ومنحهم إرادة يتحملون بها مسؤولية الطريق.

وهداية الله وضلاله واقعان بعلمه وحكمته وعدله؛ يهدي من طلب الحق وأقبل عليه، ويخذل من اختار العمى وأصر عليه، ولا يظلم ربك أحداً.

والآية نفسها تقطع الطريق على الاحتجاج الباطل بالمشيئة: ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. فلو كان الإنسان مجبوراً لا اختيار له، لما صح أن يسأل عن عمله.

إن الإيمان بالقدر لا يلغي المسؤولية، بل يضعها في إطار العبودية. أنت تعمل بإرادة خلقها الله فيك، ولا تخرج بإرادتك عن ملكه، ثم يحاسبك على الوجهة التي اخترتها في المساحة التي منحك إياها.

وقد يريد الإنسان عالمًا بلا اختلاف لأنه يتعب من الصراع، لكن الاختلاف نفسه يكشف المعادن: يظهر الصادق من المدعي، والثابت من المتلون، ومن يطلب الحقيقة ممن يطلب الغلبة.

ليست قيمة الإيمان في أنه اختيار سهل داخل عالم لا بديل فيه، بل في أنك تستطيع الإعراض ثم تختار الإقبال، وتستطيع الخيانة ثم تفي، وتملك الانتقام ثم تغفو.

إن الحرية بلا حساب عبث، والحساب بلا حرية ظلم؛ والله سبحانه منزّه عن العبث والظلم.

الفصل السادس والخمسون

فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا: خَطَرُ الْخِيَانَةِ عَلَى صُورَةِ الدِّينِ

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا
السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

تكرر السورة النهي عن اتخاذ الأيمان وسيلة للخداع؛ لأن بعض الذنوب لا يقتصر أثرها على العلاقات، بل يشوه الدين نفسه.

حين يرى الناس شخصاً يقسم بالله ثم يغدر، لا يقف أثر الخيانة عند خسارة عهد؛ فقد يحملهم فعله على إساءة الظن بكل خطاب ديني، ويجعل اسم الله الذي كان ينبغي أن يمنح الأمان مرتبطاً في أذهانهم بالخداع.

وهكذا تتحول الخطيئة الشخصية إلى صدّ عن سبيل الله.

﴿فَتَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾.

لم تقل: ففضلوا فقط، بل رسمت قدماً كانت ثابتة ثم انزلت. والثبوت السابق لا يمنح صاحبه حصانة من السقوط؛ فقد يعيش الإنسان أعواماً في الطاعة، ثم يستهين بفتنة صغيرة فتسحبه بعيداً.

إن القلوب بين أصابع الرحمن، ولذلك لا ينبغي للطائع أن يغتر بثباته، ولا أن ينظر إلى العاصي من برج آمن. يسأل الله الثبات، ويحرس المداخل التي يمكن أن يأتيه منها الانحراف.

وقد تزل القدم بكلمة، أو صحبة، أو مال، أو إعجاب بالنفس. السقوط الكبير قد يبدأ بتنازل صغير قال صاحبه: لن يضر. ثم تتبعه تنازلات، حتى يجد نفسه في موضع كان يستبعد يوماً أن يبلغه.

﴿وَتَذَوُّقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

استعمل الذوق لأن العاقبة تصبح تجربة مباشرة لا خبراً يسمع. لقد أذاقوا الناس مرارة الخيانة، فيذوقون سوء أثرها. والجزاء من جنس العمل؛ فكما جعلوا الطريق إلى الحق شاقاً على غيرهم، صار طريق النجاة مغلقاً عليهم.

الفصل السابع والخمسون

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا: كُلُّ الدُّنْيَا ثَمَنٌ قَلِيلٌ

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

كل ما تأخذه مقابل التخلي عن عهد الله ثمن قليل، مهما بدا كثيرًا. قد يكون منصبًا، أو مالًا، أو سلامة مؤقتة، أو تصفيق جمهور؛ لكنه قليل لأنه يفنى، ولأن ما خسرتَه في مقابله أعظم.

الإنسان لا يبيع مبدأه مجانًا عادة؛ لا بد أن يعرض عليه الثمن في صورة مغرية. لكن القرآن لا يناقش مقدار الثمن، بل طبيعته: ما دام من الدنيا فهو قليل بالقياس إلى ما عند الله.

قد يقول صاحب المساومة: لقد ربحت. نعم، ربح شيئًا تراه العين، لكنه خسر شيئًا لا يظهر في الحسابات العاجلة: خسر احترامه لنفسه، ونور قلبه، وثقة الصادقين، وما ادخره الله للثابتين.

ثم تأتي القاعدة التي تحرر الإنسان من فتنة المقارنة:

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾.

ما عندكم محكوم بالنفاد؛ المال ينقص، والصحة تذبل، والمنصب يتغير، والمديح ينتقل إلى غيرك. حتى الأشياء التي تبقى بعدك تنفذ علاقتك أنت بها.

أما ما عند الله فباق، لا تهدده الأيام ولا يزاحمك عليه أحد. والعمل الصالح قد يكون صغيراً في أعين الناس، لكنه حين يودع عند الله يدخل عالم البقاء.

فلا تقارن بين لذة حاضرة ووعد غائب من جهة الحضور والغياب، بل قارن بين فانٍ وباق. ما ينتهي لا يساوي ما لا ينتهي.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لأن الوفاء يحتاج إلى صبر. تصبر على إغراء الثمن، وعلى ضغط الخوف، وعلى الوحدة حين يتركك المتلونون. وقد لا يرى الناس معركتك؛ قد تكون جالساً في موضعك، لكن داخل قلبك معركة بين مبدأ ومصلحة.

الله يراها، ويجزيك لا على مجرد الامتناع الظاهر، بل على الألم الذي تحملته لتبقى وفياً.

الفصل الثَّامِنِ وَالْخَمْسُونَ

فَلْنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً: السِّرُّ الَّذِي لَا يَشْتَرِيهِ الْمَالُ

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلْنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

لا يَعد القرآن المؤمن بحياة خالية من الألم، بل بحياة طيبة. والفرق كبير.

قد تكون الحياة ميسرة ولا تكون طيبة؛ يملك صاحبها الكثير ولا يذوق السكينة. وقد تمر بالمؤمن شدائد، لكنه يحمل في قلبه معنى يجعل للحزن ضوءًا، وللابتلاء طريقًا، وللوحدة أنسًا بالله.

الحياة الطيبة ليست مجموع الأشياء التي تملكها، بل الكيفية التي يعيش بها قلبك بين الأشياء.

قد ينام الغني فوق سرير فخم، لكن القلق يسهر في صدره. ويناام الفقير على فراش بسيط، وقلبه مطمئن لأنه لم يظلم ولم يخن. فمن منهما عاش أطيب؟

إن طيب الحياة يخرج من اجتماع أصليين: ﴿عَمِلَ صَالِحًا﴾ و﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾. الإيمان يمنح العمل وجهته، والعمل الصالح يمنح الإيمان صدقه وأثره.

فلا يكفي صلاح ظاهري منفصل عن الإيمان، ولا دعوى إيمان لا تثمر عملاً. الحياة الطيبة تنبت حين تتصل الروح بربها، وتستقيم الجوارح على مراده.

وقد صرحت الآية بالمساواة في هذا الوعد: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْتَى﴾. فلا تحجب المرأة عن كرامة القرب من الله أعرافُ جاهلة، ولا يكون جنس الإنسان ميزان قيمته. الباب واحد، والشرط واحد، والوعد واحد.

إن الله لا ينظر إلى الصور التي يتفاضل بها الناس في مجتمعاتهم، بل إلى الإيمان والعمل. قد تكون امرأة مجهولة في الأرض، وهي في السماء أعظم قدرًا من رجال تصدرت أسماؤهم المجالس.

والحياة الطيبة لا تعني أن يحصل المؤمن على كل ما يريد؛ بل قد تعني أن يحرره الله من الرغبات التي كانت تستعبده. والغنى ليس دائمًا أن يتسع ما في يدك، بل أن تضيق مساحة ما تحتاج إليه لتطمئن.

ثم هناك فوق طيب الدنيا جزاء الآخرة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فضل يرفع العمل كله إلى مستوى أحسنه، ويغمر النقص برحمة الكريم.

الفصل التاسع والخمسون

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ: الْبَابُ الَّذِي يَسْبِقُ دُخُولَ الْقُرْآنِ

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ ○ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ○ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾.

حين تفتح القرآن، تدخل ميداناً لا يريد الشيطان لك أن تخرج منه مهتدياً. قد لا يمنعك من القراءة نفسها؛ لكنه يحاول أن يحجب عنك ثمرتها: يشغلك، أو يزرع الرياء، أو يدفعك إلى القراءة بعين تبحث عن عيوب الآخرين لا أمراض نفسها.

ولهذا جاء الأمر: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

الاستعاذة ليست جملة تعبر اللسان سريعاً، بل شعور بالافتقار: يا رب، لا أملك وحدي أن أحمي قلبي من التلبيس، فأجرتني من عدو يرى مداخله ولا أراه.

الشيطان رجيم، مطرود من رحمة الله، لكنه يريد أن يصنع حول القلب غربة مماثلة؛ أن يبعده عن مصدر حياته. والقرآن هو الحبل الذي يعيد القلب إلى موطنه، لذلك يحرص الشيطان أن يقطع الصلة أو يفرغها من معناها.

لكن الآية تطمئن المؤمن:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

لشيطان وسوسة وتزيين، لكنه لا يملك إجبار القلب المؤمن. إنه يطرق الباب، ولا يملك مفتاحه ما لم يفتحه الإنسان. يزين الطريق، لكنه لا يحمل القدم إليه قسراً.

وقوة المؤمن ليست في أنه لا يُوسوس له، بل في أنه يعرف إلى من يفر إذا وسوس. إيمانه يكشف الخدعة، وتوكله يمدده بالعون.

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾؛ يجعلونه ولياً، يستجيبون لتزيينه مرة بعد مرة حتى تتحول الاستجابة إلى تبعية. فالخاطر العابر ليس كالإقامة عليه، والزلة ليست كاتخاذ طريق الشيطان منهجاً.

وكلما أطاع الإنسان وسوسة ضعفت مقاومته للتي بعدها، حتى يصير القيد الذي بدأ خيطاً سلسلة. وكذلك الطاعة: تبدأ بمجاهدة، ثم تفتح في القلب قوة تجعل الطريق التالي أيسر.

فالولاية تتكون من اختيارات صغيرة متكررة. وما تفعله اليوم لا ينتهي بانتهاء اللحظة؛ إنه يصنع الإنسان الذي ستكونه غداً.

الفصل السِّتُون

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ: الْحِكْمَةُ الَّتِي تَرْبِي الْإِنْسَانَ عَلَى
مَرَاحِلَ

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

كان النسخ في بعض الأحكام مجالاً لاتهام النبي ﷺ بالافتراء؛
لأنهم لم يفهموا أن المشرع الحكيم ينقل عباده من حكم إلى حكم
بعلمه بمصالحهم ومراحل تربيتهم.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾.

هذه الجملة هي مفتاح الطمأنينة: الله يعلم حاجة النفوس، وتوقيت
التكليف، وما يصلح لكل مرحلة. فالترج ليس تناقضاً، بل حكمة
تراعي انتقال الإنسان من حال إلى حال.

الطبيب قد يغير الدواء لأن حالة المريض تغيرت، ولا يقال إنه
تناقض؛ بل إن بقاء الوصفة نفسها مع تغير الحاجة هو الذي ينافي
الحكمة. والله المثل الأعلى.

لقد ربّى الإسلام مجتمعاً خارجاً من جاهلية متجذرة، فكان الوحي
ينقل النفوس حتى تستقر على تمام الشريعة. لم يكن التدرج ضعفاً
أمام الواقع، بل بناءً عميقاً للإنسان القادر على حمل الحكم.

أما المتربص فلا يبحث عن الحكمة؛ إنه يأخذ كل تغير ذريعة للاتهام: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾. وهذا من طبيعة من قرر النتيجة قبل النظر؛ يحول الدليل نفسه إلى تهمة.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. والجهل هنا ليس غياب معلومة فقط، بل غياب فهم لطبيعة الوحي والتربية والتشريع.

إن بعض العقول تظن الثبات جمودًا لا يتحرك، مع أن الثبات الحقيقي يكون على الغاية والقيمة، وقد تتغير الوسيلة والحكم المرحلي وفق أمر الله لتحقيقهما.

الفصل الحادي والستون

نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ بِالْحَقِّ: الْوَحْيُ الَّذِي يُثَبِّتُ الْقُلُوبَ

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

لم يأت القرآن من نفس بشرية، ولم يكن صناعة ثقافة عصره؛ نَزَّلَهُ جبريل عليه السلام، الروح المقدس المطهر، من عند الله ﴿بِالْحَقِّ﴾.

حق في مصدره، وحق في مضمونه، وحق في غايته. لا يتسلل إليه باطل، ولا تحكمه أهواء البشر المتقلبة.

ثم تكشف الآية عن وظيفة وجدانية عظيمة للوحي: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

القلب المؤمن يحتاج إلى التثبيت؛ لأن الطريق ليس خاليًا من الزلازل. قد يعرف الإنسان الحق، لكنه يتعب من كلفة الثبات عليه. يرى الباطل غالبًا، والظالم متمكنًا، والصادق وحيدًا؛ فيأتي القرآن لا ليعطيه معلومة جديدة دائمًا، بل ليعيد تثبيت الحقيقة القديمة في قلبه.

فالتثبيت ليس علاجًا للجاهل وحده، بل زاد للعارف الذي أرهقه الطريق.

كم من آية لم تغير رأياً في عقلك، لكنها أنقذت قوة في روحك! قرأتها وأنت منكسر، فشعرت أن الله يخاطب موضع الألم، وأن المعركة التي بدت لك عبثاً جزء من امتحان له معنى.

القرآن لا يرفع عن المؤمن كل أذى، لكنه يمنحه قلباً لا ينهار تحت الأذى. لا يعده بأن الطريق بلا شوك، بل يعلمه كيف يمشي وفي روحه يقين أن الشوك لا يلغي الوجهة.

وهو ﴿هُدًى﴾ للعقل حين يلتبس الطريق، و﴿بُشْرَى﴾ للقلب حين يطول الانتظار. الهداية تقول له: من هنا، والبشرى تقول: لا تخف، النهاية جميلة.

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش بالتكاليف وحدها؛ يحتاج إلى وعد يضيء آخر الطريق. ولهذا كان القرآن يربي المؤمن بين الأمر والبشرى، بين واجب اللحظة وجمال المآل.

الفصل الثَّانِي وَالسِّتُونَ

لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي: التَّهْمَةُ الَّتِي يَهْدِمُهَا لِسَانُ

الْقُرْآنِ

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

حين عجزوا عن تفسير ظاهرة القرآن، اخترعوا له معلماً بشرياً. لم يستطيعوا إنكار عظمة البيان، فحاولوا نزع مصدره الإلهي.

لكن التهمة تحمل نقضها في داخلها: الشخص الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان، وهذا القرآن عربي مبين بلغ في نظمه وبيانه حدًا تحدى فصحاء العربية.

كيف يصنع صاحب لسان أعجمي هذا البحر العربي الذي وقف أرباب الفصاحة أمامه عاجزين؟

إن الباطل لا يحتاج دائماً إلى قصة متماسكة؛ يكفيه أحياناً أن يكرر تهمةً حتى يعلق منها شيء في الأذهان. بعض الناس لا يريدون إثبات الدعوى، بل يريدون تلويت صورة الحقيقة.

ولهذا ينبغي ألا نخدعنا كثرة تكرار القول. فالتكرار يصنع الألفة، لا البرهان. قد يسمع الإنسان الكذبة مرات كثيرة حتى يشعر أنها معقولة، مع أنه لم ير عليها دليلاً واحداً.

﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾.

العربية هنا وعاء الوحي المبين، لكنها ليست حاجزًا يحصر هدايته في قوم؛ فقد جاء بلسانهم ليقوم البيان، ثم امتدت رسالته إلى العالمين.

والبيان ليس مجرد جمال لغوي؛ إنه كشف للمعنى، ووضع للحقيقة في صورة تبلغ العقل والقلب معًا. فالقرآن لا يفصل بين جمال العبارة وصدق الهداية؛ يأتي الحق جميلًا، ويأتي الجمال حاملًا للحق.

ومن هنا كانت العناية بلسان القرآن جزءًا من العناية بفهمه؛ لأن المعاني تنكشف في دقة الألفاظ، والنظم، والسياق. والتدبر الذي يقطع الصلة باللسان قد يتحول إلى خواطر جميلة، لكنها بعيدة عن مراد الآية.

إن جمال التأمل الحق أن ينمو من داخل النص، لا أن يُعلّق عليه من خارجه.

الفصل الثالث وَالسِّتُونَ

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ: حِينَ يَصْنَعُ الْكُفْرُ أَكْذُوبَتُهُ

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

اتهموا الرسول ﷺ بالافتراء، فجاء القرآن يعيد التهمة إلى موضعها الحقيقي: ليس حامل الوحي هو الذي يصنع الكذب، بل الذين لا يؤمنون بآيات الله هم الذين يفترونه.

إن الكذب ليس خطأ في اللسان وحده، بل ثمرة خلل أعمق في القلب. حين يضعف الإيمان بأن الله يرى ويسمع ويحاسب، يسهل على الإنسان أن يعيد تشكيل الحقيقة بما يخدمه.

قد يكذب لينجو من لحظة، لكنه يبني حول نفسه عالماً يحتاج إلى كذب جديد ليحميه. فالكذبة لا تعيش وحدها؛ إنها تطلب ذرية من الأكاذيب تسندها، حتى يصبح صاحبها أسير قصة صنعها بنفسه.

أما الإيمان بآيات الله فيقيم داخل النفس شاهداً لا ينام. قد تغيب أعين الناس، لكن المؤمن لا يشعر أنه وحده؛ يعلم أن الكلمة تخرج مسموعة عند الله، وأن ما يُمحي من الأوراق لا يُمحي من العلم الإلهي.

﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾؛ لأنهم لم يرفضوا دليلاً منفرداً فحسب، بل اختاروا موقفاً دائماً من الآيات: ألا يؤمنوا بها. وحين يصر الإنسان على إغلاق نوافذه، لا يكون غياب الضوء ظلماً من الشمس.

إن للهداية أخلاقاً: صدق الطلب، والتواضع للحق، والاستعداد لدفع ثمنه. أما من لا يريد من الحقيقة إلا أن تخدم هواه، فإنه لا يبحث عن هداية بل عن تبرير.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾؛ حصرٌ يكشف أنهم استقروا في الكذب حتى صار وصفاً لهم. فالزلة قد تقع من المؤمن فيتوب، أما الخطر فإن تتحول الخطيئة إلى هوية، وأن يتصالح الإنسان معها حتى لا يعود يشعر بقبحها.

الفصل الرَّابِعُ وَالسِّتُون

إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ: الْقَلْبُ الَّذِي لَمْ يَبْلُغْهُ الْجَلَادُ

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

هناك فرق شاسع بين لسان أكره تحت العذاب، وقلب فتح أبوابه للكفر راضياً. والله الذي يعلم السر لا يحاكم الإنسان على ظاهر منفصل عن حقيقته.

﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾؛ في الآية رحمة بالضعف البشري، واعتراف بفضاعة التعذيب الذي قد يبلغ من الجسد مبلغاً لا يطيقه. لا يطالب الله المكره بما يتجاوز وسعه، ما دام قلبه ثابتاً مطمئناً بالإيمان.

إن الجلاّد قد يملك الجسد، لكنه لا يملك القلب. يستطيع أن يقيد اليد، ويجرح الظهر، وينتزع كلمة من الفم؛ لكنه يعجز عن دخول السريرة ما لم يفتحها صاحبها.

وهذه واحدة من أعظم مناطق الحرية الإنسانية: المساحة التي بين العبد وربّه. قد تُسلب حريته في الطريق والبيت والعمل، لكن يبقى في داخله محراب لا تصل إليه سلطة الأرض.

﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

لم يقل: متمسك بالإيمان فحسب، بل ﴿مُطْمَئِنٌّ﴾؛ كأن الإيمان وطن القلب الذي يعود إليه رغم العاصفة. الألم يحيط بالجسد، لكن في الداخل سكينة أعمق من صراخ اللحظة.

ليس الاطمئنان غياب الخوف الطبيعي، بل وجود يقين لا يقتلع الخوف أصله. قد ترتجف الأطراف ويبقى القلب ثابت القبلة.

وفي المقابل: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾؛ استقبله راضيًا، ووسّع له في داخله، ولم يكن مجرد ضحية إكراه. التعبير شديد الدقة؛ فالصدر هنا لم يُغلب لحظة، بل انفتح للكفر واختاره.

والله لا يحاسب الكلمات بأصواتها المجردة، بل يعلم الطريق الذي جاءت منه: أخرجها التعذيب من فم قلب ثابت، أم أخرجها الرضا من قلب منشرح بالباطل؟

الفصل الخامس والسِتُّون

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا: حِينَ تَتَحَوَّلُ الْمَحَبَّةُ إِلَى
مِيزَانٍ أَعْمَى

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ○ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ
وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ ○ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْخَاسِرُونَ﴾.

لم تكن مشكلتهم أنهم أحبوا الحياة؛ فحب الحياة فطرة، والإسلام
لا يطلب من الإنسان أن يكره نعم الله. المشكلة أنهم ﴿اسْتَحَبُّوا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾؛ قدّموها عند التعارض، وجعلوها
المرجع الأعلى لكل اختيار.

الخلل ليس في وجود الدنيا في اليد، بل في تقدمها داخل القلب.
حين تصبح الدنيا أكبر الهم، يُعاد تعريف الحق وفق المنفعة: ما
يزيد المال حق، وما يهدد المكانة باطل، ولو جاءت الآيات بعكس
ذلك.

كل إنسان يكشف ترتيب محبوباته عند التضحية. ما دامت القيم
والمصالح تسيران معًا، يستطيع الجميع ادعاء الوفاء. فإذا افترق
الطريقان ظهر أيهما أحب إلى القلب.

قد يقول المرء إنه يحب الصدق، فإذا هدد الصدق منصبه اختار الكذب. ويقول إنه يؤمن بالعدل، فإذا كان الظالم قريبه أو حزبه اخترع له الأعذار. هنا لم يعد المبدأ هو الذي يحكم المصلحة، بل صارت المصلحة تكتب المبادئ.

ثم جاءت عقوبة الإصرار: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾. وهو طبع عدلٍ بعد اختيارهم وإعراضهم المتكرر؛ فقد استعملوا منافذ المعرفة في رفض الحق حتى تعطلت عن الانتفاع به.

لم يفقدوا العيون، لكنهم فقدوا البصيرة. ولم يفقدوا الأذان، لكنهم لم يعودوا يسمعون سماع استجابة. والقلب موجود، لكنه صار كالغرفة المغلقة لا يدخلها هواء الهداية.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

الغفلة ليست نقص المعلومات؛ فقد يعرف الغافل أخبارًا كثيرة، لكنه يجهل الحقيقة التي يتوقف عليها مصيره. يراقب تغير الأسعار، ويغفل عن تناقص عمره. يحفظ أسماء المشهورين، وينسى الاسم الذي سيُدعى به إلى الحساب: يا عبد الله.

قد يكون حاضر الذهن في الدنيا، غائب القلب عن الآخرة. وهذه أشد الغفلات؛ أن تعرف تفاصيل الطريق وتنسى وجهته.

والنتيجة: ﴿فِي الْأَخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾. خسروا الباقي لأنهم
اختاروا الفاني، وخسروا أنفسهم وهم يظنون أنهم يحسنون
حمايتها.

الفصل السادس والسِتُّون

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا: أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ بَعْدَ
الْإِنْكَسَارِ

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا
إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بعد الحديث عن الفتنة والإكراه، تفتح السورة باب الرحمة لمن مروا بالابتلاء ثم نهضوا. فقد يقع الإنسان تحت ضغط الفتنة، وقد يصيبه منها ضعف أو أذى، لكن قصته لا تنتهي عند لحظة الانكسار.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾؛ أي عُدُّوا وابتُلُوا في دينهم. ثم لم يجعلوا ما أصابهم مبرراً دائماً للتراجع، بل هاجروا وجاهدوا وصبروا.

إن القرآن لا يختصر الإنسان في أسوأ لحظاته. يفتح له طريقاً ليعيد كتابة الخاتمة، ما دام باب العمر مفتوحاً. قد يتعثّر، لكنه يستطيع أن يقوم؛ وقد يضعف، لكنه يستطيع أن يحول ذكرى الضعف إلى قوة تحرسه مستقبلاً.

﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾.

لم تكن العودة عاطفة عابرة، بل عملاً وصبراً. فالتوبة الصادقة لا تقول فقط: ندمت، وإنما تبني طريقاً جديداً يعاكس الطريق القديم.

من أفسد يصلح، ومن ظلم يرد الحق، ومن جبن في موضع يتدرب على الثبات. ليست التوبة محوًا معنويًا للماضي وحده، بل ولادة إرادة جديدة.

ثم يأتي اسم الرب مرتين في الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وفيه معنى التربية والرعاية؛ فالرب الذي يعلم ضعف عباده يفتح لهم بعد الفتنة طريق الهجرة والجهاد والصبر.

﴿مِنْ بَعْدِهَا لَعْفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بعدها: بعد الفتنة، والهجرة، والجهاد، والصبر. كل هذا التاريخ المؤلم ينتهي عند مغفرة ورحمة. لا تسمح للشيطان أن يجعل ذنبًا قديمًا جدارًا بينك وبين الله، إذا صدقت في العودة.

قد يبقى الماضي في ذاكرتك ليعلمك التواضع، لكنه لا يلزم أن يبقى في صحيفتك بعد التوبة النصوح. فالله لا يغفر مضطرًا، بل هو الغفور الرحيم؛ يحب أن يعود إليه عبده ويطهره.

الفصل السابع والستون

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا: وَحَدَّةُ الْمَوْقِفِ الْآخِرِ

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

في الدنيا يجادل الإنسان عن جماعته، وعن أهله، وعن أصحابه، وقد يتخذ من انتمائيه درعًا يحتمي به. أما يوم القيامة فتأتي كل نفس تجادل عن نفسها.

تسقط الحشود، ويترجع كل إنسان إلى وحدته الأصلية. فلا القبيلة تحمل عنك خطيئتك، ولا الجماعة تمنحك من حسناتها، ولا هتافات الجمهور تدخل معك القبر.

ما أكثر الذين يفعلون في الجماعة ما يستحيون أن يفعلوه منفردين! يشعر الفرد أن المسؤولية تذوب في العدد، وأن الجميع إذا أخطأوا صار الخطأ أخف. لكن القيامة تعيد توزيع المسؤولية على أصحابها واحدًا واحدًا.

كنت جزءًا من الحشد في الدنيا، لكنك نفس مستقلة أمام الله.

﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾؛ هول الموقف يجعل كل امرئ مشغولًا بنجاته. واللسان الذي كان يجادل دفاعًا عن الباطل سيحاول الدفاع عن صاحبه، لكن الأعمال محفوظة.

﴿وَتُؤَقِّي كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

توقى: تعطى جزاءها كاملاً. لا تضيع حسنة في زحام الخلائق، ولا تختلط صحيفة بصحيفة، ولا يؤخذ بريء بذنوب مذنب.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

هذه طمأنينة عظيمة للصالحين، ووعيد للظالمين. قد تُظلم في محكمة الأرض لأن القاضي جهل، أو الشاهد كذب، أو القوي تدخل. أما هناك فالحاكم عليم، والشهادة محفوظة، والميزان لا يميل.

فلا تخش ضياع خير لم يره الناس، ولا تظن أن شرًا خفيًا قد نجا. كل شيء ذاهب إلى تمامه.

الفصل الثَّامِنِ وَالسِّتُونِ

قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً: حِينَ تَرَحَّلُ النِّعْمَةُ مِنْ بَيْتِ الْجُحُودِ

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

ترسم الآية صورة نعيم اجتماعي كامل: أمن، وطمأنينة، ورزق واسع يأتي من كل مكان.

الأمن يحفظ الجسد، والطمأنينة تسكن القلب، والرزق يقيم الحياة. قد يوجد الأمن بلا طمأنينة حين يعيش الناس تحت مراقبة الخوف، وقد يوجد الرزق بلا أمن فيتحول المال إلى قلق. أما هذه القرية فقد جمعت النعم.

لكنها ﴿كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾.

لم تقل بنعمة، بل ﴿بِأَنْعُمٍ﴾؛ نعم متكاثرة قابلوها بالجحود. والكفر بالنعمة لا يقتصر على إنكار مصدرها باللسان؛ بل يكون بتحويلها إلى أدوات ظلم وفساد.

إذا أعطى الله أمة قوةً فبطشت، وثروة فاحتكرها مترفوها، وأمنًا فاستعملته لإسكات المظلوم، فقد وضعت النعمة في الطريق الذي يقود إلى زوالها.

فالنعم لا تحفظها الحراسة وحدها؛ يحفظها الشكر. والشكر الاجتماعي هو إقامة العدل، وصيانة الحقوق، وإطعام الجائع، ومنع الفساد. أما أناشيد الحمد التي ترفعها أمة وهي تسحق فقراءها فلا تحجب عنها سنن الله.

﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾.

جمع التعبير بين الذوق واللباس. الجوع والخوف يُذَاقان من الداخل، ويلبسان المجتمع من الخارج، حتى يحيطا به إحاطة الثوب بالجسد. لقد كان الرزق يأتيهم من كل مكان، ثم صار الجوع محيطاً بهم؛ وكانوا آمنين، ثم صار الخوف لباسهم اليومي.

إن النعمة إذا رحلت لا تترك مكانها فارغاً دائماً؛ قد يحل ضدها في الموضع نفسه. من لم يشكر الأمن قد يذوق الخوف، ومن أفسد الرزق قد يعرف الجوع.

لكن الآية لم تقل: بما كانوا يقولون، بل ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ لأن الانهيار الاجتماعي تصنعه الأعمال المتكررة: ظلم هنا، واحتكار هناك، وصمت عن الفساد، وتزييف للوعي، حتى تتجمع الخيوط في حبل يخنق المجتمع.

لا تنهار القرى فجأة، وإن بدا سقوطها مفاجئاً؛ إنها تصنع سقوطها كل يوم، ثم يأتي اليوم الذي تظهر فيه النتيجة.

الفصل التاسع والستون

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ: الرَّسُولُ الَّذِي جَاءَ مِنْهُمْ

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

لم يأتهم الرسول غريبًا لا يعرفون تاريخه، بل ﴿مِنْهُمْ﴾؛ يعرفون نسبه ولسانه وأمانته، ويدركون أنه لم يكن صاحب كذب قبل الرسالة.

كانت هذه القرابة ينبغي أن تفتح قلوبهم للثقة، لكنها لم تغلب مصالح المستكبرين. فالمشكلة لم تكن في غموض الرسول، بل في وضوح الرسالة التي هددت مواقعهم.

إن الإنسان قد يرفض أقرب الناس إليه حين يأتيه بحقيقة لا توافق هواه. وقد يكون البعيد أسهل قبولًا؛ لأن اعترافه بفضل القريب يشعره أنه ينبغي أن يتواضع له.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ والكلمة تختصر سلسلة من العناد والاستهزاء والمقاومة. لم يكن التكذيب موقفًا ذهنيًا ساكنًا، بل تحول إلى ظلم للرسول وأتباعه وصد عن الحق.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ لم يأخذهم لأنهم لم يفهموا، بل بعدما ظلموا وأصروا. وهنا تعود قاعدة السورة: العذاب لا يقع اعتبارًا، وإنما يأتي بعد طريق يصنعه أصحابه.

الفصل السَّبْعُونَ

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا: الْقُوْتُ الَّذِي يَبْنِي الرُّوحَ
وَالْجَسَدَ

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

بعد مثل القرية التي كفرت بالنعم، يأتي الأمر باستعمال الرزق على وجهه الصحيح: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾.

الحلال يبين مشروعية المصدر، والطيب يشير إلى سلامة الشيء وجودته وموافقته للفترة. فليس المقصود أن يدخل الطعام إلى الجسد بأي طريق، بل أن يكون طاهر المنبع طيب الأثر.

قد يكون الطعام في ذاته طيبًا، لكن المال الذي اشتري به سُرق من فقير، فيفسد الحرام المعنى وإن استلذ الفم الطعم. إن الإسلام لا يسأل فقط: ماذا تأكل؟ بل: من أين جاء ما تأكل؟

فاللحمة تحمل معها قصة مصدرها. قد تدخل بيتًا من عرق كريم، فتزرع بركة وكرامة، وقد تدخل من رشوة أو خيانة، فتقيم في الجسد شاهدًا على الظلم.

وما أعظم مسؤولية من يطعم أبناءه! فهو لا يبني أجسادهم بمادة فقط، بل يحيط نشأتهم بأثر الكسب الذي جاء به الطعام.

ثم قال: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾.

الأكل ليس فعلاً حيويًا منفصلاً عن العبادة؛ إنه لحظة وصل بين الجسد والمنعم. تبدأ باسم الله، وتنتهي بالحمد، ويتحول المباح بالنية إلى قربى.

﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ فالعبادة تظهر في موقفك من الرزق. من عبد الله لم يطلب قوته بمعصيته، ولم يعتقد أن الحرام هو الباب الوحيد للعيش. يعلم أن من أمره بالحلال هو الرزاق.

وقد يختبر الله صدق العبد حين يوضع الحلال القليل إلى جوار الحرام الكثير. هناك يظهر: أيثق بوعد الله، أم يصدق إغراء اللحظة؟

إن لقمة حلال قليلة تدخل بيتك ومعها رضا الله خير من مائدة واسعة تختلط بحقوق الناس. فالجسد يشبع بالطعام، لكن الروح لا تشبع إلا بالبركة.

الفصل الحادي والسبعون

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ: التَّحْرِيمُ الَّذِي تَحْرُسُهُ الرَّحْمَةُ

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بعد الأمر بالحلال الطيب، تبيين الآية المحرمات من المطاعم المذكورة: الميتة، والدم المسفوح، ولحم الخنزير، وما ذكر عليه اسم غير الله.

ليس التحريم تحكماً في حياة الإنسان، بل سيادة الله وحماية للعبد. فالذي خلق الجسد أعلم بما يصلحه، والذي رزق الطعام له الحق أن يبين طريق الانتفاع به.

وفي تحريم ما أهل لغير الله به حماية للتوحيد حتى في لقمة الطعام؛ فلا ينفصل الغذاء عن العقيدة، ولا يقبل المؤمن نعمة قُدمت في سياق عبادة غير الله.

لكن الشريعة التي تضع الحد تفتح باب الرخصة عند الضرورة:

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

إذا صار حفظ الحياة متوقفاً على تناول المحرم، جاز للمضطر منه قدر حاجته، من غير طلب للمحرم ولا تجاوز لحد الضرورة.

وهنا يظهر جمال الشريعة: مبادئ ثابتة ورحمة تراعي حال الإنسان. ليست الحدود جدراناً صماء تسحق المضطر، وليست الرحمة فوضى تلغي الحدود. بينهما ميزان دقيق: يحفظ الحكم، ويراعي الضعف.

إن الله الذي شرع هو الغفور الرحيم، فلا ينبغي أن يقدم دينه للناس في صورة قسوة جافة. لكن الرحمة الشرعية ليست تمييغاً للأحكام؛ إنها رخصة في موضعها، كما أن العزيمة حكم في موضعها.

والفقه الحق هو أن تعرف أين يقف الحد، وأين تفتح الضرورة باب الاستثناء، دون أن تجعل الحاجة المتهومة ضرورة، أو تجعل الترف مسوغاً لتجاوز أمر الله.

الفصل الثَّانِي والسَّبْعُونَ

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ: حِينَ يَتَجَرَّأُ الْإِنْسَانُ عَلَى

مَقَامِ الشَّرِيعِ

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ليس لأحد أن يجعل ذوقه الشخصي وحياً، أو عاداته شريعة، أو مصلحته معياراً للحلال والحرام. فالتشريع حق لله، ولا ينسب إليه حكم إلا بعلم ودليل.

﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾؛ كلمتان تبدوان قصيرتين، لكنهما من أخطر الكلمات إذا قيلتا بغير علم. فالتحليل والتحریم ليسا وصفاً عابراً، بل نسبة حكم إلى الله.

قد يضيق إنسان على الناس ما وسعه الله باسم الورع، وقد يبيح ما حرمه الله باسم التيسير. وكلاهما تجاوز؛ فكما لا يجوز تحليل الحرام، لا يجوز تحريم الحلال.

إن بعض الناس يجعل مزاجه ميزاناً للدين: ما ألفه سماه سنة، وما استغربه سماه بدعة أو حراماً. وقد يخلط بين ثقافة بيئته وحكم الله، ثم يحمل الناس على عادات قومه كأنها نصوص منزلة.

ولهذا يحتاج المتكلم في الدين إلى خشية تسبق عبارته. أن يقول:
لا أعلم، خير له من أن يملأ فراغ معرفته بنسبة قول إلى الله.

﴿لَتَقْفِرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾؛ فجريمة الفتوى بغير علم لا تقف عند
إضلال الناس، بل تتضمن الحديث باسم الله دون إذنه.

وقد ينال صاحب القول الباطل متاعاً قليلاً: مكانة، أو جمهوراً،
أو رضا سلطة، لكنه يبيع سلامته بثمن ينفد. ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾؛ مهما
طال زمنه فهو قليل أمام عذاب لا يطاق.

إن أخطر الكذب ما ارتدى ثوب الفتوى؛ لأن الكذبة العادية قد
تخدع الناس في شأن من شؤون الدنيا، أما الكذب على الله فقد
يفسد عليهم دينهم وطريقهم إلى الآخرة.

الفصل الثالث والسبعون

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا: الْعُقُوبَةَ الَّتِي جَاءَتْ مِنَ الظُّلْمِ

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

تحليل الآية إلى ما سبق بيانه من محرمات مخصوصة على اليهود بسبب ظلمهم، وتؤكد الأصل الذي تكرر في السورة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾.

الله لا يظلم عباده في حكم ولا جزاء. وما أصابهم من التضيق كان أثرًا لظلمهم وبغيهم، لا ظلمًا من الله لهم.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

الإنسان حين يعصي قد يتخيل أنه أخذ شيئًا لنفسه، لكنه في الحقيقة يأخذ من نفسه. يظلمها حين يحرمها نور الطاعة، ويثقلها بتبعات الذنب، ويضيّق عليها بعد أن كانت سبل الخير واسعة.

وقد تصنع الجماعة بسلوكها قيودًا تأتيها في صورة نتائج اجتماعية وتاريخية. حين يكثر الغش، تضطر الحياة إلى مزيد من الرقابة والعقود؛ وحين تضعف الأمانة، تتعقد المعاملات؛ وحين ينتشر العنف، تمتلئ المدن بالحوادث.

كثير من القيود التي يشكو منها الناس هي الظل المتراكم لأخلاقهم. لقد صنعوا بيئة لا تثق بهم، ثم ضاقوا بما صنعت أيديهم.

إن الطاعة توسع الحياة في معناها، والمعصية تضيقها وإن بدت أول الأمر تحرراً. فما من حد لله يتجاوزه الإنسان إلا ويقع بعده في قيد أشد.

الفصل الرَّابِعُ وَالسَّبْعُونَ

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ: الرَّحْمَةُ الَّتِي تَنْتَظِرُ
الْعَائِدِينَ

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

بعد التحذير من الافتراء والظلم، لا تغلق السورة الباب، بل تفتحه للتائبين. وهذه من أبداع خصائص الخطاب القرآني: لا يهون الذنب، ولا يجعل الذنب نهاية الإنسان.

﴿عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾؛ وكل من عصى الله فهو جاهل حال معصيته، ولو عرف الحكم؛ لأن المعرفة التي لم تمنعه من النار لم تتحول في تلك اللحظة إلى بصيرة حكمة.

قد يعلم المرء أن الفعل حرام، لكنه يجهل قدر من عصاه، أو تغلبه شهوته حتى يتصرف تصرف من غابت عنه العاقبة.

ثم وضعت الآية طريق العودة في خطوتين: ﴿تَابُوا﴾ و﴿أَصْلَحُوا﴾.

التوبة رجوع القلب، والإصلاح تصحيح الأثر. لا يكفي لمن أكل حقاً أن يندم دون أن يرده، ولا لمن شوه سمعة بريء أن يستغفر سراً ويترك الكذبة تمشي بين الناس.

كلما كان للذنوب أثر خارج النفس، كان من تمام التوبة أن يبذل صاحبه وسعه في إصلاحه. فمن هدم جدارًا لا يكتفي بالبكاء أمام أنقاضه؛ بل يبدأ البناء.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تكررت الإشارة إلى البعدية؛ من بعد الجهالة، ومن بعد التوبة، ومن بعد الإصلاح. وكأن الله يقول: مهما كان وراءك من تاريخ، يمكن أن يكون أمامك تاريخ آخر إذا صدقت.

لا يملك الماضي أن يحكم مستقبلك حكمًا أبديًا. قد يتحول الذنب نفسه بعد التوبة إلى جرح يعلمك الرحمة بالعصاة، ويمنعك من الكبر على المذنبين، ويجعلك أشد تعلقًا بستره.

إن الله لا يغفر فقط، بل يرحم؛ والمغفرة تمحو أثر الذنب، والرحمة تفتح بعد المحو أبواب القرب والخير.

فلا تقل: لقد تأخرت. ما دام القلب ينبض، فباب العودة أقرب من خطوتك الأولى إليه.

الفصل الخامس والسبعون

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً: الرَّجُلُ الَّذِي اجْتَمَعَتْ فِيهِ مَعَانِي جِيلٍ

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

بعد أن طافت السورة بالإنسان بين النعمة والجود، وبين التوحيد والشرك، وبين الوفاء والخيانة، أقامت أمامه نموذجاً حياً يجسد المعاني كلها: إبراهيم عليه السلام.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾.

كان رجلاً واحداً في العدد، لكنه كان أمةً في القيمة، جامعاً لخصال الخير، إماماً يُقتدى به، ثابتاً على الحق حين كانت الأرض من حوله تضج بالشرك. لم يحتج إلى كثرة تؤكد له صحة موقفه؛ لأن الدليل كان في قلبه أوضح من ضجيج الجماعة.

إن الأكثرية قد تمنح الإنسان شعوراً بالأمان، لكنها لا تمنح الباطل حقاً. وإبراهيم عليه السلام يعلمنا أن المؤمن قد يقف وحده، لكنه لا يكون وحيداً ما دام مع الله.

قد يكون رجل واحد أمة حين يحمل من الإيمان والبصيرة والرحمة ما يوقظ أجيالاً. وقد تكون جماعة كبيرة بلا وزن حين تعيش مكررةً لما ورثت، لا تحمل فكرة ولا تنهض بحق.

القيمة ليست في عدد الأجساد، بل في مقدار المعنى الذي يسكنها.

﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾؛ دائم الطاعة، خاشعًا منقادًا. لم تكن علاقته بالله لحظات متفرقة، بل حالة مستمرة تنتظم العمر كله. فالقنوت عبودية لا تنقطع بانتهاء الشعيرة؛ تمتد إلى الموقف والكلمة والاختيار.

﴿حَنِيفًا﴾؛ مائلًا عن الباطل كله إلى التوحيد الخالص. والحنيف ليس إنسانًا يقف في المنتصف بين الحق والشرك، بل يترك الانحراف متجهًا إلى الله.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

جاء النفي بعد الإثبات ليظهر المعنى من كل شبهة. فقد كان المشركون ينتسبون إلى إبراهيم، فجاء القرآن يكشف أن الانتساب الحقيقي إليه ليس بالنسب ولا بالشعار، بل بتوحيده.

كم من قوم يرفعون اسم رجل صالح وهم أبعد الناس عن منهجه! يحولونه إلى رمز يزين هويتهم، ثم يخالفونه في جوهر ما دعا إليه. لكن ميراث الأنبياء لا ينتقل بالدعوى؛ ينتقل بالاتباع.

ثم يصفه الله بصفة تنسجم مع روح السورة كلها:

﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾.

لم تقل الآية: شاكراً لنعمه فقط، بل ﴿لَأَنْعِمَهُ﴾؛ يرى تفاصيل النعم ويتوجه بها إلى واهبها. لقد اجتمعت فيه عبودية التوحيد وعبودية الشكر؛ لأن الشكر هو الوجه العملي للتوحيد.

الشاكِر لا يرى النعمة حقاً طبيعياً له، بل فضلاً يستوجب الحب والطاعة. وإذا فقد شيئاً لم ينسَ كل ما بقي، وإذا ابتلي لم يمحِ الابتلاء من ذاكرته تاريخ الرحمة.

كان إبراهيم عليه السلام قد ابتلي بالنار، والهجرة، ومفارقة الأهل، وتأخر الولد، والأوامر الثقيلة؛ ومع ذلك وصفه الله بأنه شاكِر. فالشكر ليس وليد حياة خالية من الألم، بل ثمرة قلب يرى يد الله في العطاء والمنع.

وقد تكون أعمق صور الشكر أن تبقى محسن الظن بالله حين لا تفهم حكمته في اللحظة.

﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

لما صدق في القنوت والتوحيد والشكر، اجتباه الله؛ اصطفاه وقربه وحمله رسالة إلى العالمين. والهداية هنا ليست معرفة الطريق وحدها، بل التثبيت عليه حتى النهاية.

ثم جمع الله له الحسنتين: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾؛ من الذكر الحسن، والنبوة، والذرية الصالحة، والمحبة في قلوب المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ فلم تستنفد الدنيا جزاءه، بل بقي له عند الله ما هو أعظم.

لقد خرج إبراهيم من وطنه مطارداً، وحيداً في مواجهة الشرك، ثم صار بعد آلاف السنين أمةً تنتسب إليه، وأباً لسلسلة من الأنبياء، ويُذكر اسمه في صلوات المؤمنين.

هكذا يصنع الله للثابتين: قد يبدأ الطريق بوحدة، وينتهي أثره بأمة.

الفصل السادس والسبعون

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: وَحَدَّثَ الطَّرِيقِ مِنَ الْخَلِيلِ
إِلَى الْحَبِيبِ

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾.

إنها صلة نورانية بين الرسالات: محمد ﷺ مأمور باتِّباع ملة إبراهيم في توحيدها وخضوعها لله. ليست الرسالات جزراً منفصلة، بل نهر واحد يمتد من مشكاة الوحي، تختلف بعض الشرائع التفصيلية وتبقى العقيدة واحدة.

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾؛ ملة لا تنحني لصنم، ولا تمنح مخلوقاً حق الله، ولا تتوزع بين خالق وخلق. إنها إخلاص الوجه لله.

وتكررت البراءة من الشرك: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ لأن المشركين حاولوا الاستناد إلى إبراهيم، فجاء القرآن ينتزع اسمه من تزييفهم.

ليس القرب من إبراهيم ببناء النسب وحده، بل بكسر الأصنام؛ وأخطر الأصنام ما بُني داخل القلب: صنم الهوى، وصنم العصبية، وصنم المصلحة، وصنم الأشخاص الذين تُرد من أجلهم النصوص وتُقلب الموازين.

وقد يحطم الإنسان حجرًا ويبقي في داخله وثنا؛ يعلن التوحيد
بلسانه، لكنه يطيع هواه طاعة مطلقة، أو يمنح جماعته ولاءً
يعميه عن الحق.

إن الحنيفة تحرير مستمر للقلب من كل منافس يزاحم محبة الله
وطاعته. وكلما اكتشف المؤمن في نفسه تعلقًا مذلًا بغير الله، عاد
بمعهوله الإيمان ليهدمه.

الفصل السَّابِعُ وَالسَّبْعُونَ

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ: يَوْمَ كَشَفَ حَقِيقَةَ
الطَّاعَةِ

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

تأتي الإشارة إلى السبت لتبين أنه تكليف اختص به الذين فُرض
عليهم، وأن أمة محمد ﷺ ليست مطالبة به، وإنما لها يوم الجمعة.

وقد صار السبت ميداناً كشف صدق الطاعة عند بعض بني
إسرائيل؛ إذ نُهوا عن الصيد فيه، فاحتال فريق على الحكم،
وأرادوا أن يحفظوا شكله ويهدموا حقيقته.

وهنا تكمن علة التحايل: أن يبحث الإنسان عن صورة تبدو
طاعة، بينما قلب الفعل معصية. لا يريد مخالفة النص علناً، ولا
يريد ترك شهوته؛ فيصنع ممراً لغوياً يمر منه الهوى.

لكن الله لا تخدعه الأسماء. ما دام المقصد هو تجاوز أمره، فلن
يغير الحيلة أن تُغطى بعبارة منمقة.

وقد يتحول الفقه في يد صاحب الهوى من علم يهديه إلى مراد
الله إلى أداة يبحث بها عن أخف مخرج من التكليف. يسأل لا
ليعرف ما يرضي الله، بل ليجد من يبيح له ما قرر فعله.

الفرق كبير بين من يطلب الرخصة لحاجة معتبرة، ومن يتتبع الأقوال ليبني منها دينًا موافقًا لشهواته.

ثم يرد الله الاختلاف إلى المحكمة الأخيرة: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ليس كل خلاف يمكن أن ينتهي في الدنيا؛ فقد تختلط فيه الأهواء، ويطول فيه النزاع، ويموت أطرافه دون اتفاق. لكن المؤمن يعلم أن هناك يومًا لا تضيع فيه الحقيقة بين المرافعات.

وهذا لا يدعو إلى ترك البحث عن الصواب، بل يمنعه من البغي أثناء الخلاف. يجتهد، ويبين، ويحفظ العدل، ثم يعلم أن الحكم النهائي لله.

الفصل الثَّامِنِ وَالسَّبْعُونَ

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ: أَخْلَقُ الْكَلِمَةَ وَفَقَهُ الْوُصُولِ إِلَى
الْقُلُوبِ

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

في هذه الآية منهج كامل للدعوة، يبدأ بتصحيح الملكية: ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

إنه سبيل الله، لا سبيل الداعية إلى ذاته، ولا طريق الجماعة إلى نفوذها. الداعية لا يجمع الناس حول شخصه، بل يدلهم على ربهم. وكلما امتلأت الدعوة بالذات، ضاق فيها نصيب الله.

قد يفرح الإنسان بأن ينتصر رأيه، ويحسب أنه انتصار للدين، بينما الذي انتصر في داخله هو حب الغلبة. ولهذا يحتاج الداعية إلى أن يفتش في نيته: هل يريد هداية المخالف، أم يريد أن يراه مهزوماً؟

﴿بِالْحُكْمَةِ﴾.

الحكمة أن تضع الكلمة المناسبة في موضعها، وفي وقتها، وبقدرها. فقد تكون الكلمة حقًا، لكن إلقاءها في غير أوانها يفسد أكثر مما يصلح. وليس كل ما يُعلم يقال لكل أحد بالطريقة نفسها.

الحكمة لا تعني إخفاء الحق، بل حسن إيصاله. أن تعرف طبيعة من أمامك، وحاجته، وحجابه النفسي، فتفتح له الباب الذي يستطيع الدخول منه.

بعض الناس يحتاج إلى برهان، وبعضهم يحتاج إلى أمان يحرره من خوفه، وبعضهم لا تمنعه الشبهة بقدر ما يمنعه جرح قديم ارتبط عنده بصورة الدين.

والحكيم لا يعالج الجراح بالمطارق.

﴿وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ﴾

لم يقل: والموعظة فقط، بل وصفها بالحسنة. فليست كل موعظة حسنة في أسلوبها، ولو كان موضوعها حقًا. قد يحول الواعظ النصيحة إلى إذلال، ويستخدم ذنب الإنسان منصة ليعلن تفوقه الأخلاقي.

الموعظة الحسنة تفتح في القلب نافذة الرجاء، ولا تسحق المذنب تحت ماضيه. تخوفه من الذنب دون أن تقنطه من الرحمة، وتبين له الخطأ مع حفظ كرامته الإنسانية.

إن الهدف من الموعظة أن يعود العاصي إلى الله، لا أن يعود من مجلسك كارهاً لنفسه ولدينه.

﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

انتقلت الآية من الحسنة إلى ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ لأن الجدل ميدان سريع الاشتعال، يحتاج إلى أعلى درجات ضبط النفس والعبارة.

لا يكفي أن يكون دليلك صحيحاً؛ ينبغي أن تكون طريقتك هي الأحسن. تحترم عقل المخالف، ولا تكذب عليه، ولا تسخر منه، ولا تحمل كلامه ما لا يحتمل، ولا تستعمل زلته لتتهرب من حجته.

إذا ربحت الجدل وكسرت قلب الإنسان، فربما أبعدته عن الحق الذي زعمت الدفاع عنه. وليس كل إسكات إقناعاً؛ قد يصمت المخالف لأنه أهيّن، لا لأنه اهتدى.

المجادلة الأحسن تفرق بين الفكرة وصاحبها. ترد الخطأ، لكنها لا تنزع عن المخطئ إنسانيته. وتبقى عادلة حتى مع من لم يعدل؛ لأن أخلاق المؤمن لا يصوغها سلوك خصمه، بل أمر ربه.

ثم ترد الآية العلم بالقلوب إلى الله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

سُورَةُ النَّحْلِ

لا تتصرف كأنك تملك الحكم النهائي على المصائر. قد ترى إنساناً بعيداً، وفي قلبه صدق سيقوده يوماً إلى الهداية، وترى آخر في الصف الأول، وفي باطنه انحراف لا تعلمه.

وظيفتك أن تدعو، لا أن توزع مفاتيح الجنة والنار. والله أعلم بمن ضل، وأعلم بمن اهتدى، وأعلم بالكلمة التي سنثمر ولو بعد حين.

الفصل التاسع والسبعون

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ: الْعَدْلُ عِنْدَ اشْتِعَالِ
الْغَضَبِ

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّابِرِينَ﴾.

لا يطلب الإسلام من الإنسان أن يكون بلا ألم ولا غضب، ولا
يسلب المظلوم حقه في الانتصاف؛ لكنه يضع ميزانًا في اللحظة
التي تكون فيها النفس أشد ميلًا إلى التجاوز.

﴿فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾.

الحد هو المماثلة، فلا تتحول المظلومية إلى رخصة للظلم. كونك
بدأت معتدًى عليك لا يضمن أن تظل عادلاً في النهاية؛ فقد
تتجاوز في الرد حتى تصبح شريكًا في العدوان.

وكم من جماعة حملت جرحًا حقيقيًا، ثم جعلت جرحها مبررًا
لجرح الأبرياء! وكم من إنسان ظلم مرة، فظلم عشرًا وهو يقول:
إنما أرد حقي!

العدل لا يسقط في ساحة الغضب. بل هناك يُختبر صدقه؛ لأن المرء حين يكون هادئاً لا يحتاج إلى جهد كبير ليكون منصفاً. أما حين يشتعل القلب وتملك اليد القدرة، يصبح الوقوف عند الحد عبادة شاقة.

ثم يفتح القرآن باباً أعلى من القصاص العادل:

﴿وَلَيْنَ صَبْرٌ ثُمَّ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾.

الصبر هنا ليس عجزاً ولا تنازلاً مذلاً عن الحق، وإنما اختيار واعٍ لما هو أعلى حين يحقق العفو مصلحة ويكون صاحبه قادراً على الرد. أما عجز الضعيف عن العقوبة فليس هو الصبر الممدوح المقصود وحده؛ لأن الفضيلة تظهر حين توجد القدرة ثم يضبطها الإيمان.

العفو الذي يصلح المعتدي ويطفىء دائرة الثأر خير، أما العفو الذي يشجعه على مزيد من الظلم فقد لا يكون حكمة. ولهذا جاءت الآية أولاً بإباحة العدل، ثم فتحت مقام الفضل.

إنها لا تبني إنساناً منزوع الكرامة، بل إنساناً يملك قوته ولا تملكه قوته.

الفصل الثَّمَانُونَ

وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ: حِينَ لَا يَكْفِي الْقَلْبُ نَفْسَهُ

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

يأتي الأمر: ﴿وَاصْبِرْ﴾، لكنه لا يترك النبي ﷺ يعتمد على قوته النفسية وحدها: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

الصبر ليس دائماً عضلة داخلية يشدها الإنسان متى شاء. هناك آلام أكبر من طاقة القلب، ولولا مدد الله لانكسر. فالعبد يصبر بالله: يستمد منه المعونة، ويرى بنوره المعنى، ويثق بوعدده حين يكذب ظاهر الواقع كل رجاء.

وما أرحم الله حين يأمر عبده بأمر ثم يخبره أنه سيعينه عليه! لم يقل له: اصبر بقوتك، بل علّق صبره بالله.

حين يطول البلاء، لا تسأل نفسك فقط: هل ما زال لديّ صبر؟ بل قل: يا رب، أفرغ عليّ صبراً. فالخزان الحقيقي ليس فيك، وإنما عنده.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

كان النبي ﷺ يحزن لإعراض قومه؛ لأنه يريد نجاتهم، لا انتصاره الشخصي عليهم. وهذا الحزن دليل الرحمة، لكنه إذا تجاوز حده استهلك القلب فيما لا يملك تغييره.

ليس عليك أن تهلك أسفًا على من اختار إغلاق قلبه بعد البلاغ. تحزن رحمةً، لكنك لا تسمح للحزن أن يعطلك عن السير.

وقد يحزن الإنسان على شخص بذل له صدقه كله ثم رأى منه الإعراض أو الخيانة. تعلمه الآية أن يترك مساحة لاختيار الآخرين؛ فأنت لا تستطيع أن تكون قلبًا بدل قلبهم.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾

المكر يضيق الصدر؛ لأنه شر يعمل في الخفاء، ولا يعرف الإنسان من أين سيخرج. يراقب ظواهر الأمور، بينما يتخيل خطأً تدور وراءه، فيستنزفه القلق قبل أن يقع شيء.

لكن الله يعلم المكر قبل أن يولد في أذهان أصحابه. وما كان مكتشفًا لله لا ينبغي أن يخنق قلب المتوكل. قد لا تعرف أنت الخطة، لكن ربك يعرفها، ويملك إبطالها أو تحويلها على أصحابها.

ليس معنى ذلك الغفلة عن الحذر؛ بل أن تأخذ حذرَكَ دون أن تجعل الماكر يسكن عقلك ليلاً ونهارًا. لا تمنحه انتصارًا مجانيًا بأن يحول حياتك إلى خوف دائم.

سُورَةُ النَّحْلِ

المؤمن يحتاط بعقله، ويطمئن بقلبه.

الفصل الحادي والثمانون

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا: الْمَعِيَّةُ الَّتِي تَكْفِي فِي آخِرِ الطَّرِيقِ

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

تنتهي سورة النحل بآية قصيرة، لكنها تحمل كل ما يحتاجه السائر بعد هذه الرحلة الطويلة: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ﴾.

بعد الحديث عن المكر والعدوان والحزن والضيق، لا تعد الآية المؤمن بأن الأعداء سيختفون فوراً، بل تعده بما هو أعظم: أن الله معه.

ومعية الله للمتقين والمحسنين معية خاصة تليق بجلاله: معية حفظ وتأييد ونصر وهداية، من غير حلول ولا امتزاج، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً؛ فهو سبحانه ليس كمثله شيء.

قد تكون وحيداً في حساب العدد، لكنك لست متروكاً. وقد تُغلق أبواب الأرض، لكن المعية الإلهية تفتح في قلبك باباً لا يملكه أحد.

وما الذي يخسره من كان الله معه؟ قد يفقد مالا، أو مكاناً، أو صحبة، لكنه لا يفقد المعنى الذي يجعله قادراً على الوقوف. وما الذي يربحه من كانت الدنيا كلها معه والله عليه؟

ربطت الآية المعية بصفيتين:

﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ جعلوا بينهم وبين سخط الله وقاية، فتركوا ما حرم وأدوا ما أمر. والتقوى حراسة للحدود.

﴿الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾؛ لم يقفوا عند الحد الأدنى، بل تجاوزوا إلى الجمال: عبدوا الله بإخلاص ومراقبة، وأحسنوا إلى خلقه.

التقوى تمنعك من الظلم، والإحسان يدفعك إلى جبر المظلوم. التقوى تكف يدك عن الأذى، والإحسان يمدّها بالعطاء. التقوى تحرس سلامة الطريق، والإحسان يملؤه نورًا.

وكان ختام السورة يقول: بعد أن عرفت النعم، لا يكفي أن تعدّها؛ اتق الله فيها وأحسن بها. حوّل المعرفة إلى وفاء، والرزق إلى عطاء، والقوة إلى عدل، والكلمة إلى هداية.

عندئذ لا تكون النعمة شيئًا بين يديك فحسب، بل تصبح طريقًا تمشي به إلى الله.

مِنْ إِحْصَاءِ النِّعَمِ إِلَى صِنَاعَةِ الْإِنْسَانِ الشَّاكِرِ

بدأت سورة النحل بقوله تعالى:

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾،

وانتهت بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

وبين المطلع والختام تمتد رحلة الإنسان كلها: أمرٌ آتٍ لا مهرب منه، وحياة قصيرة مغمورة بالنعمة، وطريق يُختبر فيه القلب، ثم معية يفوز بها من اتقى وأحسن.

افتتحت السورة بهزة القيامة حتى لا يظن الإنسان أن النعم وُجدت ليغرق فيها وينسى المصير. ثم فتحت أمامه خزائن الرحمة: خلقه من نطفة، وسخر له الأنعام، وأنزل الماء، وأنبت الزرع، وأجرى الليل والنهار، وسخر البحر، وألقى الجبال، وجعل النجوم علامات، وأخرج اللبن، وألهم النحل، وبنى له في الأسرة سكناً، وفي البيت أماناً، وفي الثياب سترًا ووقاية.

لم تترك السورة الإنسان ينظر إلى جهة إلا وجد نعمة.

فوقه سماء تمطر.
وتحته أرض تستقر.
وحوله كون مسخر.
وفي داخله سمع وبصر وفؤاد.
وفي بيته سكن.
وفي طعامه رزق.
وفي الوحي روح وهداية.
وفي التوبة مغفرة.
وفي الآخرة عدل لا يضيع.

لكن السورة لم ترد أن تصنع إنساناً مأخوذاً بجمال النعمة فقط؛ بل إنساناً يعرف مسؤوليتها. فقد ربطت العطاء بالشكر، والتسخير بالإسلام، والرزق بالعبادة، والقدرة بالإحسان.

قالت للإنسان، بمعانيها المتدفقة: لا يكفي أن تشرب الماء؛ اعرف من أنزله. ولا يكفي أن تأكل الثمرة؛ تفكر فيمن أخرجها. ولا يكفي أن تسكن البيت؛ اجعله سكناً لمن معك. ولا يكفي أن تملك المال؛ أنفق منه سرّاً وجهراً. ولا يكفي أن تُعطى الكلمة؛ اجعلها صدقاً وعدلاً وموعظة حسنة.

فالنعمة التي لا تقود إلى الله قد تتحول إلى حجاب عنه.

ولهذا عرضت السورة صورة القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فلما كفرت بأنعم الله انقلب الأمن خوفاً، والشعب جوعاً. لم يكن زوال النعمة حادثاً منفصلاً عن أخلاق أهلها؛ بل كان حصاداً لما كانوا يصنعون.

إن النعم لا تحرسها الخزائن وحدها؛ يحرسها الشكر. وشكر المال عدالة، وشكر القوة رحمة، وشكر العلم تواضع، وشكر الأمن حفظ لحقوق الناس، وشكر اللسان صدق.

وفي قلب السورة تقف النحلة معلمةً صغيرة في مدرسة الوجود. تتلقى هدى ربها، وتسلك سبله، وتأخذ من الطيبات، ثم تخرج للناس شفاء. وكأنها تقدم للإنسان خلاصة رسالته:

لا تكن مستهلكاً للنعمة، بل محولاً لها إلى نفع.

خذ من الحياة رحيقها، لا سمومها. وخذ من الناس فضائلهم، لا عثراتهم. وخذ من التجارب حكمتها، لا مرارتها وحدها. ثم أخرج من قلبك للناس كلمة تشفي، ويذاً تعين، وموقفاً يعدل.

إن الإنسان الشاكر يشبه النحلة: لا يمر بالعالم عبثاً، بل يترك وراءه حلاوةً وشفاء.

ثم رفعت السورة إبراهيم عليه السلام نموذجاً للشكر والتوحيد: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾. رجل واحد واجه عالم الشرك بقلب حنيف، فلم تقسه السماء بعدد من حوله، بل بمقدار ما حمله من الحق.

وفي ذلك عزاء لكل من استوحش من قلة السائرين: لا تجعل العدد ميزان الحقيقة. قد تكون وحدك في المكان، لكنك مع موكب الأنبياء في الطريق. وقد يحيط بك الباطل من كل جانب، لكن القلب الذي عرف الله لا يستمد يقينه من تصفيق المحيطين.

وعند آخر الطريق، لم تترك السورة المؤمن معتمداً على قوته، بل قالت له:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

فحتى صبرك نعمة. والثبات ليس ملكاً شخصياً تفاخر به، بل مدد يتنزل عليك من الله. أنت لا تعبر الطريق لأنك أقوى من كل فتنة، بل لأن الله يمسك قلبك كلما أوشك أن يسقط.

ثم جاءت الكلمة الأخيرة:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾.

وبهذه المعية تهدأ مخاوف الرحلة كلها.

إذا جاء أمر الله، فالمتقون مستعدون.

وإذا اشتد المكر، فالله معهم.

وإذا طال الطريق، فالله يثبتهم.

وإذا نقص المتاع، فما عند الله باقٍ.

وإذا تفرق الناس، فمعيته تؤنسهم.

وإذا جاء الحساب، فلا يُظلمون.

إن سورة النحل لا تعلمنا أن نقول: الحمد لله فحسب؛ بل أن نصبح حمداً يمشي على الأرض: أخلاقاً تليق بالنعمة، وعدلاً يحفظها، وإحساناً ينشر أثرها، وتوحيداً يردها إلى واهبها.

فإذا رأيت المطر، فاسمع فيه نداء الرحمة.
وإذا شربت اللبن، فتفكر في النقاء الخارج من بين الأذى.
وإذا ذقت العسل، فتذكر أن أجمل ما يأخذه الإنسان من الحياة هو ما يعيده إليها شفاء.
وإذا دخلت بيتك، فاحمد الله على السكن، واجعل قلب من فيه آمناً منك.

وإذا رأيت نعمة في يدك، فاسأل قبل أن تزول: ماذا يريد الله أن أصنع بها؟

فليس الشاكر من يعرف عدد العطايا؛ فقد أخبر الله أننا لن نحصيها. إنما الشاكر من عرف وجهة النعمة، فسار بها إلى المنعم.

وهكذا تصبح الحياة كلها محراباً واسعاً: اللقمة فيه عبادة، والعمل أمانة، والجمال آية، والعدل قربة، والإحسان شكر، والصبر استعانة، والطريق كله ماضٍ إلى الله.

تَمَّتْ تَأْمَلَاتُ سُورَةِ النَّحْلِ كَامِلَةً، بِحَمْدِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ، شَامِلَةً آيَاتِهَا مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى إِلَى الْآيَةِ الثَّامِنَةِ وَالْعَشْرِينَ بَعْدَ الْمِائَةِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.